أثر آدم وحواء
في التاريخ اللغوي

بقلم

رياض حسن الخوام

الألوكة
www.alukah.net
00201156800204

أثر آدم وحواء
في التاريخ اللغوي

بقلم
رياض حسن الخوام
الأستاذ في جامعة ام القرى

هذا البحثُ محاولةٌ تضاف إلى بحوثٍ سبقتْ تناولنا فيها تأصيلَ الدرس اللغوي الخاص بمكة، لقد أصدرنا كتابين يتناولان تفسيرات لغوية لأسماء الكعبة وأسماء مكة المكرمة، وشاركنا في مؤتمر (مكة قلب العلوم) ببحث يتناول تفسير أسماء زمزم، وها نحن الآن نقدم إضاءة جديدة تضيء لنا جانبًا آخر من تاريخ مكة الروحاء الفيحاء لحظناه عند سيدنا آدم وأمنا حواء، لقد وصلت إلينا أخبار تتعلق بهما تمثل ظواهر لغوية كان لها حضور في تلك الظواهر اللغوية المتناثرة في كتبِ اللغةِ والمعجماتِ اللغويةِ، وكتب تاريخ مكة، قمنا بجمعها وترتيبِها، وتوضيحها، لنضيفها إلى جهودنا اللغوية السابقة الخاصة بهذه البقعة المباركة آملين في نهاية دراساتنا اللغوية المكية تقديم صورة واضحة كاملة عن تاريخ مكة اللغوي. وإني لعلى يقين أن الأماكن المقدسة لابد أن يكون لها خصائصُ تتميز بها، لأن متكلم اللغة في بيئة مقدسة يكون له شأنٌ خاص، وحال خاص وحضورٌ خاص، كل ذلك يدعو إلى إنتاج أنواعٍ من الكلام لها أساليب خاصة، كأن يختار أحسنَ الألفاظ ويصطفي من مخزونه اللغوي أجملَ التراكيب والعبارات التي تصور وتتفق مع جلال البقعة وجمال المكان، كما تنبي عن حال الإنسان في مثل هذا المقام.

وأعتقد أيضا أن الوقوفَ على هذه الأهداف اللغوية في مكة المكرمة يحتاج إلى الكثير من الجهود لتجلية سيرتها التاريخية، ومعرفة أنظمتها الداخلية، حين كنت أقرأ في كتب اللغة وتاريخ مكة خاصة لحَظتُ ما ينبغي أن أظهرَه، وهو أن هناك كثيرًا من الأخبار الدالة على أن سيدَنا آدم وزوجَه حواء كان لهما حضورٌ في تاريخنا اللغوي لاسيما فيما يتعلق بمكةَ المكرمة، فقد قيل: إن آدم أقام بمكة مائةَ عام[1] فهذه الروايةُ على ضعفها تدفعنا إلى التفكير بتلك اللغةِ التي كان يقضي بها حوائجَه وأغراضَه، ولا شك أنه كان يفكر تفكيرًا عاليًا دقيقًا في الحقائق الكونية التي رآها في أرضٍ جديدةٍ غريبةٍ نزل إليها ورأى ما فيها من تدبيراتِ الخلَّاقِ العليمِ الخبيرِ، ، لذلك علينا أن نلتمسَ الكثيرَ من أوليات اللغة وقوانينِها العامة من الآثار المتحدثةِ عن بدايات الناطق بهذه اللغة، فمن خلالها نصلُ إلى العقل اللغوي عند الإنسان، ونرى تراكيبَه اللغويةَ الأولى، إن استطعنا، لذا فما نقدمه الآن هو إضاءةٌ، ربما تكون فاتحةً لأبواب من البحث التاريخي اللغوي.

- لقد بدا لي الحضور اللغوي لسيدنا آدم وحواء في المظاهر والصور الآتية:

أولا: في الخلاف حول أصل اسميهما واشتقاقهما ـ لقد وجد اللغويون في تأصيلِ اسميهما أنهم أمام خَياراتٍ لغويةٍ تدللُ على سبب تسميتهما بآدم وحواء، فلفظةُ آدم أصلُها أَأْدمُ على زنة أَفْعَلَ، فلينوا

---

١ – الطبقات الكبرى للشعراني ٦٨

لثانية كما قال ابن عادل فصار آدم [٢]، وكنيته كما ذكرا بنُ عطية هي أبو محمد، وقيل: أبو البشر[٣] ثم قدَّم المفسرون وأهلُ اللغة أقوالًا متعددة في الكشف عن أصل هذا الاسم وتفسيره:

١- قيل: هو اسم أعجمي كآزر، فهو ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة [٤]، وهو أرجح الآراء كما قال ابن عادل [٥].

٢- وقيل: هو على وزن أفعل مشتق من الأُدْمَةِ، كالسُّمرة وجمعه أُدُم وأوادم كحُمُر وأحامر.

٣- وقيل: وزنه فاعَل مشتق من أديم الأرض أي وجهها، ورد أبو حيان الوجهين قائلًا: "ومن زعم أنه أفعلَ مشتق من الأدمة وهي كالسُّمرة أو من أديم الأرض وهو وجهها، فغير صواب، لأن الاشتقاق من الألفاظ العربية قد نص التصريفيون على أنه لا يكون في الأسماء الأعجمية" [٦].

وما زعمه أبو حيان لا يتجه فيما يبدو لأنه يرجع فيه إلى التسليم بأنه أعجمي، والظاهر أن من قال: إنه مشتق فعنده أنه عربي، ثم سُمي به أدمُ فصارت علة منعه من الصرف هي العلمية مع وزن الفعل كأحمد ويزيد.

٤- وذكر ابنُ عطيةَ بعد ذلك رأيًا آخر فقال: وقيل: آدم وزنه فاعَل، مشتق من أديم الأرض كأن المَلَك آدمَها وجمعه آدمُون وأوادم " [٧].

وردّ ابنُ عطية هذا الرأيَ بقوله: " ويلزم قائلُ هذه المقالةَ صرفَه" [٨] وتبعه أبو حيان فقال: "ومن زعم أنه فاعل من أديم الأرض فخطؤه ظاهر لعدم صرفه" [٩].

والظاهر أن الخلاف بات حول وزنِه، فمن ذهبَ إلى أنه على أفعَل واشتقاقه من الأدمة التي هي السمرةُ أو من أديم الأرض أي وجهها، فمذهبه متجه لأنه ممنوع من الصرف للعلمية ووزن الفعل، أما من ذهب إلى أنه على وزن فاعَل ومشتق من أديم الأرض أيضًا أي من وجهها فغير متجه، لأن وزنَ

---

٢ - اللباب ٥١٢/١

٣ - المحرر الوجيز، ٢٦٢/١ يعني وزنه فاعَل لأن مصدره هو المؤازرة، ومنع من الصرف للعلمية والعجمة كما قالوا، وأشهر الآراء أن آزر هو أبو إبراهيم كما نص القرآن على ذلك وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر.

٤ - البحر المحيط ١٣٨/١.

٥ - اللباب ٥١٢/١.

٦ - البحر المحيط ١٣٨/١.

٧ - المحرر الوجيز ٢٣٣/١.

٨ - المحرر الوجيز، ٢٣٣/١.

٩ - البحر المحيط، ١٣٨/١.

فاعَلَ مصروف، وللتوفيق بين الرأيين أقول: كلا الاشتقاقين صحيح، لأن ابن عطية ساق حديثًا نبويًا يؤكد ذلك قال: روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: خلقَ الله آدمَ من أديم الأرض كلها فخرجت ذريتُه على نحوها- أي مثل الأرض -، منهم الأبيض والأسود والأسمر والسهل والحزن والطيب والخبيث [١٠] فهذا النص يتضمن ألوانَ الناسِ – والأدمة أيضًا هي لونٌ – يعني أن العلاقةَ بين أديم الأرض بالنظر إلى ألوانها المذكورة، والأدمة أي اللون الأسمر نراها وثيقة جدًّا بل هي من بؤرة واحدة، ولا شك أننا بهذه النظرة نستطيع القول: إن، كلا القولين له قبول، وإنما ذهبت إلى ذلك لأن لدينا الكثير من أقوالُ الصحابة والتابعين تؤكد أنه عليه السلام سُمي بذلك لأنه خُلق من أديم الأرض، قال السيوطي: "أخرج الفِرْيابي وابنُ سعد وابنُ جرير، وابنُ أبي حاتم والحاكمُ وصححه البيهقي في "الأسماء والصفات" عن ابن عباس قال: إنما سُمي آدمُ لأنه خُلق من أديم الأرض"[١١]، وأضاف السيوطي قائلًا: وأخرج ابنُ سعد وعبدُ بن حميد وابنُ جرير عن سعيد بن جبير قال: أتدرون لِمَ سُمِّي آدم؟ لأنه خُلِقَ من أديم الأرض "[١٢].

ولهذا كله نقول: لا مانع من القول: إنه على وزن "أفعل" ومنع من الصرف للعلمية ووزن الفعل، وبذلك نجعله عربيًا لا أعجميًا وهذا كله يقودنا إلى القول: إن لفظةَ آدم عربيةٌ، والاشتقاق يدلُّ على عربيتها، وفي الخزانة العالمية (النت) وجدتُ مقالًا حول معنى كلمة آدم فعجبت حين قال صاحبه بأنه اسم عربي، لكنه لم يبين دليله في ذلك قال: آدم اسمٌ علمٌ يرجع إلى أصول عربية قديمة، وأصله هو أأدم على وزن "أفعل " من الأدمة [١٣] فإن قيل: يَرِدُ عليكم أن هناك آراء يقول أصحابُها إن لغته كانت السريانية والجواب: ما قاله العيني عن بعضهم قال العيني: قيل: كان آدمُ يتكلم باللغة العربية –أي في الجنة –، فلمَّا نزل إلى الأرض حُوّلَتْ لغتُه إلى السريانية " ثم ذكر العيني سبب تحويل آدم من العربية إلى السريانية فقال: لما تاب الله على آدم، ردَّ عليه العربية [١٤]، ومن هذا كله أخلصُ إلى القول: إن اسمَ

---

١٠ – المحرر الوجيز ٢٣٣/١ وفي الهامش: روى الترمذي عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم ى يقول: "حديث طويل وفيه: منهم الأحمر والأبيض..إلخ قال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح.

١١ – الدر المنثور ٢٦٣/١.

١٢ – الدر النثور ٢٦٣/١.

١٣ – موقع عربي "معنى اسم آدم "وقال: هو أول الأسماء على الأرض وأول الأنبياء وفي القرآن ذكر أكثر من مرة، وسرد بعض الآيات القرآنية " والمقال تثقيفي مفيد. من غير ذكر لمصادر أو مراجع.

١٤ – فكأن السريانية كانت من ضمن العقاب، وفي ذلك إشارة إلى فضل العربية.

آدم عربي، مشتق من الأدمة أو من أديم الأرض وأنه على وزن أفعل و منع من الصرف للعلمية ووزن الفعل يؤنسنا بذلك أن لغته في الجنة هي العربية، فيكون الجذر عربي، واللغة عربية، ولا داعي للقول بسريانية لغته أو عبرانيتها ما دمنا نستطيع جعل ذلك عربيًّا.

٥- أخيرًا قيل: هو عبري من الإدام وهو التراب [١٥]، ولا أرى سببًا لذلك فمما ذكرناه آنفا نتبين أنه عربي، ولا داعي للقول: إنه أعجمي وقولُ أبي حيان إنه من الإدام وهو التراب يلتقي مع تفسيرنا الذي أدى بنا إلى القول إنه عربي، ولعلي لا أبعد عن الصواب إن قلت: إن العبريةَ هي التي أخذته من العربية، لأننا اتفقنا في أنه من أديم الأرض، وهو أحد الجذرين اللذين قيل بأنهما مصدر اشتقاق آدم منهما، والمطرد عندنا أن الاشتقاق يدل على عربية الكلمة، فلعل العبرية وغيرها من اللغات السامية التي حوت مفرداتها على لفظة أدم بحروفه العربية أو بتغييرات صوتية، أخذته من العربية ما دامت هي اللغة الأولى التي تكلم بها آدم أبو البشر.

٦- قيل: هو فعل رباعي مثل أكرم ثم سمي به، نسبه أبو حيان إلى الطبري مصدرًا إياه بقوله: وأبعد الطبري"[١٦]، والظاهر أن الطبري وجد بهذا القول مندوحة عن القول بأعجميته. واستبعاد أبي حيان لقول الطبري لا يعني عدمَ جوازه، ألم تسم العرب بالرباعي كأحمد ومنعوه من الصرف أيضًا! وهذا الرأي يؤكد أنهم شعروا بكونه عربيًا لكن كما ترى اختلفوا في بيان وجه العربية منه ولعل تفسيرنا بأدلتنا تثبت عربية الاسم بدل تعجيمه.

- أما اسم حواء فقيل: هي من الحُوَّة، -وهي كما قال الأصمعي - حُمرةٌ تَضربُ إلى السواد، وقيل: هي سُمرةُ الشفة، وعلى هذا يقال: رجل أحوى وامرأة حواء [١٧]، فوزنها فعلاء، يعني سميت بحواءَ لأُدْمَةٌ كانت فيها كما قال الزمخشري [١٨]قيل: كان في ذقنها حُوّةٌ (حمرة مائلة إلى السواد كما ذكرنا – وقيل: كان لونُها يَضرِبُ إلى السُّمرة،

- وقيل: هي من الفعل حوى يقال: احتوى على الشيء أي استولى عليه " [١٩]فكأن حواء احتوتْ آدمَ، فالرجل يعيشُ مع زوجه، يأنس بها ويستمع إليها حتى تحتويه بأخلاقها الفاضلة، قال ابن

---

١٥ – البحر المحيط، ١٣٨/١.

١٦ – انظر: البحر المحيط ١٣٨/١ واللباب المنسوب لابن عادل ٥١٢/١بتصرف، وانظر أيضًا البحر العميق ١٤٤٢٤/٣.

١٧ – مختار الصحاح، حوى.

١٨ – موقع أتباع المرسلين.

١٩ – مختار الصحاح، حوى.

مسعود وابنُ عباس أيضًا: لما أُسكِنَ آدمُ الجنةَ مشى فيها مستوحشًا، فلما نام خُلِقَتْ حواءُ من ضلعه القُصيرَى ليسكنَ إليها ويتأنّسَ بها، فلما انتبه رآها فقال: من أنت؟ قالت: امرأةٌ خُلِقتُ من ضلعك لتسكُنَ إليَّ [٢٠] وفي رواية أخرى لابن عباس قال: حين أنبأ الملائكةَ بالأسماء وأُسْجِدوا له، أُلقيتْ عليه السِّنَة وخُلِقتْ حواءُ، فاستيقظ وهي إلى جانبه[٢١]، فقال – فيما يزعمون – لحمي ودمي، وسكنَ إليها، فذهبتِ الملائكةُ لتجربَ علمَه، فقالوا له: يا آدم ما اسمها؟ قال: حواء، قالوا: ولِمَ؟ قال: لأنها خُلقتْ من شيء حي [٢٢] ففي هاتين الروايتين ما يؤكد أن اسمَ حواءَ مشتق من حوي بمعنى الاحتواء، فقول آدم عنها: إنها لحمي ودمي، وقولها له: خُلِقتُ من ضلعك لتسكنَ إليَّ "فيهما ما يؤكد على احتواء المرأة للرجل فلا يمكن أن يكون هناك سكون من غير احتواء كاملٍ للرجل، مشاعرِه وعواطفِه وعقلِه حتى تصيرَ لحمَه ودمَه كما قال عليه السلام، والمهم أنها إن كانت من الفعل حوى فوزنُها فعَّال، وإن كانت من مؤنث أحوى فوزنُها فعلاء. وينبني على هذا أنها ممنوعةٌ من الصرف على كلا التفسيرين، سواء قلنا: إن وزنها فعلاء أم فعَّال، لا يقال: إن وزن فعّال مصروف لأنها بعد التسمية اجتمع فيها العلمية والتأنيث، وثمة رواية أخرى ذكرها القرطبي تفيد أنه عليه السلام هو الذي علل سبب تسمية حواء بامرأة أيضًا فكأنه عليه السلام علل للفظة المرأة ولاسم حواء أيضًا، قال القرطبي "قيل له – والقائلون هم الملائكة – منْ هذه؟ قال امرأة، قيل: وما اسمها؟ قال: حواء، قيل: ولم سميت امرأةً؟ قال: لأنها من المرء أُخذتْ، قيل: ولمَ سميت حواء؟ قال: لأنها خلقت من حيٍّ، روي أن الملائكة سألته عن ذلك لتجربَ علمه، "وتتابع هذه الرواية ما يصور لنا طبائع النساء قال القرطبي: قالوا له: أتحبها يا آدم؟ قال: نعم، قالوا لحواء: أتحبينه يا حواء؟ قالت: لا! وفي قلبها أضعاف ما في قلبه من حبه! قالوا: فلو صدقت امرأة في حبها لزوجها لصدقت حواء [٢٣]، والحق أننا لا نسلم لهذا الإطلاق فالواقع ومشاهدة الأحوال لا تؤيده.

---

٢٠ – المحرر الوجيز، ١/٢٥٠ والجامع للقرطبي ١/٤٤٩وفيه: من ضلعه القصيرى من شقه الأيسر وبعد الرواية قال القرطبي: وقال العلماء: ولهذا كانت المرأة عوجاء؛ لأنها خلقت من أعوج وهو الضِّلع.

٢١ – وفي جامع القرطبي ١/٤٤٩ رواية تتفق مع هذه الرواية وفيها زيادات طريفة قال لقرطبي: وهو اول من سماها بذلك – أي باسم حواء – خلقت من ضلعه من غير أن يحس آدم عليه السلام بذلك ولو ألم بذلك لم يعطف رجل على امرأته "

٢٢ – المحرر الوجيز، ١/٢٥٠وفيه عن ابن مسعود وابن عباس: خلقت حواء من ضلعه القصيرى وفي الهامش بالتصغير، هي أسفل الأضلاع وقيل: آخر ضلع من الجنب.

٢٣ – الجامع ١/٤٤٩.

- وهكذا أثار اسم نبينا آدم عليه السلام وزوجه حواء، خلافًا بين العلماء للوصول إلى أصلهما واشتقاقهما.

– أما الأثر الثاني الذي أثاره سيدنا آدم وزوجه فهو معرفة أصل اللغة التي تكلما بها، وكيف نشأت، ثم ما هي؟ أهي العربية أم غيرُها؟ والمشهورُ أن هناك رأيين في هذه القضية، الأول: أنها توقيفية، والثاني: أنها اصطلاحية[٢٤]، فالذين قالوا: هي توقيفٌ حجتهُم قولُه تعالى "وعلم آدمَ الأسماءَ كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال: أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين " نقل القرطبي عن ابن خويز منداد قوله: في هذه الآية دليل على أن اللغة مأخوذة توقيفًا وأن الله تعالى علمها آدم عليها السلام جملة وتفصيلًا[٢٥]، وكذلك واستتبعَ ذلك كثرةُ الآراء التي تفسرُ ما تعلمه آدمُ، أوجزها ابنُ فارس فقال: كان ابنُ عباس يقول: علمه [٢٦]الأسماءَ كلَّها، وهي هذه الأسماءُ التي يتعارفها الناسُ من دابةٍ وأرض وسهل وجبل وحمار وأشباهِ ذلك من الأمم وغيرها، أي علمه اسمَ كلِّ شيء من جميع المخلوقات [٢٧]وعن مجاهد قال: علمه اسمَ كلِّ شيء، وقال غيرُهما: إنما علَّمه أسماءَ الملائكة، وقال آخرون: علَّمه أسماءَ ذريتِه أجمعين "[٢٨]وما ذكره ابنُ فارس قليلٌ من كثير مما حفلَتْ به كتبُ التفسير في بيان ما علمه وبيانِ معنى العلم [٢٩] ومعنى العَرْضِ حتى ذكرَ ابنُ عطيةَ عن ابنِ جني عن أبي علي الفارسي أنه قال: علم اللهُ تعالى آدمَ كلَّ شيء

---

٢٤ – للمزيد من التفصيل راجع الخصائص لابن جني ٤١/١.

٢٥ – الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي ٤٢١/١ وفي المحرر الوجيز ٢٣٤/١ عن ابن عباس: أنه تعالى علمه كلمة واحدة عرف منها جميع الأسماء "وكأن هذه الكلمة بمنزلة مفتاح يفتح للمرء تعلم ومعرفة اللغات كلها والله أعلم فلعلها بمنزلة ما نستعمله اليوم لتخزين معلومات كثيرة جدًا في "الفلاشة " "الخزانة — في العربية. ولعل هذا الخبر فيه إشارة لما قيل عن القلم الرومي الي تحدث عنه ابن النديم ففيه أن الحرف يتضمن كثيرا من المعلومات فليتأمل، وقال الدكتور قباوة مشيرًا إلى ما نحن بصدده فقال.

٢٦ – المحرر الوجيز، ٢٥٠/١ والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، ٤٤٩/١.

٢٧ – انظر المحرر الوجيز ٢٣٤/١، وفي الخصائص ٤٠/١ أنه لا دليل في الآية على أنها توقيف "وذلك أنه قد يجوز أن يكون تأويله: أقدر آدم على أن واضع عليها وهذا المعنى من عند الله سبحانه لا محالة، فإذا كان ذلك محتملًا لا غير مستنكر سقط الاستدلال به".

٢٨ – وعلى هذين الرأيين تكون قراءة "عرضهم " مقوية لهما، وقد ذكر ابن جني في الخصائص ٤١/١ما يدل على أنه علمه كل اللغات أيضًا قال: "إن الله سبحانه علم آدم أسماء جميع المخلوقات بجميع اللغات: العربية والفارسية والسريانية والعبرانية والرومية وغير ذلك من سائر اللغات فكان آدم وولده يتكلمون بها، ثم إن ولده تفرقوا في الدنيا وعلق كل منهم بلغة من تلك اللغات فغلبت عليه واضمحل عنه ما سواها لبعد عهدهم بها".

٢٩ – قيل: علمه بمعنى عرفه وعرضها بمعنى أظهرها الجامع للقرطبي /٤٢٢.

حتى إنه كان يُحسِنُ النحو مثلَ ما أحسنَ سيبويه[٣٠]، فهذه الرواياتُ والتفسيراتُ أثارتْ مناقشاتٍ ماتعةً في هذا الصدد، ورأينا هم يُستخدمُون الأحكام النحوية ليؤيدوا تفسيراتِهم واجتهاداتهم، قال ابنُ فارس بعد عرضه الآراء "والذي نذهبُ إليه ما ذكرناه عن ابن عباس – أي علمه الأسماءَ كلَّها – فإن قال قائل: لو كان ذلك كما تذهبُ إليه لقال: "ثم عرضهن أو عرضها"، فلما قال: "عرضهم "عُلم أن ذلك لأعيانِ بني آدم أو الملائكة لأن موضوعَ الكناية في كلام العرب أن يُقال لما يَعقل "عرضهم"، ولما لا يعقل "عرضها أو عرضهن"، [31]وأورد المفسرون كابن عطية والقرطبي توجيهات للقراءات الواردة في لفظة (عرضهم)، فيها، فذكروا أن في حرف ابن مسعود "عرضهن"، وتوجيهها أنه أعاد الضميرَ على الأسماء دون الأشخاص، وقالوا: إن أبيَّ بنَ كعبٍ قرأ عرضها، لأن لفظَ الأسماء هي المسميات عنده [٣٢].

– ويبدو أن قولَ ابنِ عباس – مع سردِه عددًا كبيرًا من مسميات الأسماء الكثيرةِ المتنوعةِ – دفع بالنحاة إلى اعتماد أن الاسمَ سابقٌ على الفعل، قال سيبويه "واعلمْ أن بعضَ الكلام أثقلُ من بعض، فالأفعالُ أثقلُ من الأسماء، لأن الأسماءَ هي الأُولى وهي أشدُّ تمكنًا" ألا ترى أن الفعلَ لابد له من الاسم، وإلا لم يكن كلامًا، والاسمُ قد يستغني عن الفعل تقول: الله إلهنا، وعبدُ الله أخونا [٣٣]ووضح ذلك ابن جني قائلا: كيف خص الأسماء وحدها قيل: اعتمد ذلك من حيث كانت الأسماء أقوى القُبُلِ الثلاثة ولا بد لكل كلام مفيد من الاسم، وقد تستغني الجملة المستقلة عن كل واحد من الحرف والفعل فلما كانت الأسماء من القوة والأولية في النفس والرتبة على ما لا خفاء به جاز أن يكتفى بها مما هو تال لها ومحمول في الحاجة إليه عليها [٣٤].

ثالثًا: وكان له عليه السلام أثرٌ واضحٌ في تنشيط الآراء التي تتناول معرفةَ اللغةِ التي كان يتكلمُ بها هو وابنُه ومن ثمَّ تنشيطُ الآراء أيضًا حول تاريخِ العربية ومعرفةِ جذورِها الأولى التي نبتتْ منها ثم توزعتْ

---

٣٠ – المحرر الوجيز ١/٢٣٥.

31 – الصاحبي، ٦-٧، وأكد هذا ابنُ عطية قائلًا: "من قرأ عرضهم، فلفظُ الأسماءِ يدل على الأشخاص، فلذلك ساغ أن يقول للأسماء "عرضهم" المحرر الوجيز ١/٢٣٥.

٣٢ انظر المحرر الوجيز ١/٢٣٥والجامع ١/٤٢٢بتصرف ولفهم القضية نقول: اختلف المفسرون حول كيفية عرض الله سبحانه وتعالى على الملائكة هذه الأسماء، قال ابن مسعود عرض على الملائكة أشخاص الأسماء، وقال ابن عباس: عرض عليهم الأسماء، فعلى قول ابن مسعود تتفق قراءة " عرضهم، وعلى ظاهر قول ابن عباس تتفق عرضها أو عرضهن، لكن قالوا إن مراد ابن عباس هو ما يستتبع الأسماء وهو الأشخاص فيتفق هذا التفسير مع قراءة عرضهم انظر المحرر الوجيز ١٢٣٦ والجامع للقرطبي ١٤٢٢ بتصرف.

٣٣ – الكتاب، ١/٢٠.

٣٤ – الخصائص ١/٤٢.

وتفرقتْ وتنوعتْ، قال ابنُ عباس: تكلم آدمُ بسبعمائةِ ألف لغة، أفضلُها العربيةُ [٣٥] وأكد ابن جني هذا العموم وفصل كيف تم افتراق اللغات، قال: علم آدم أسماء جميع المخلوقات بجميع اللغات: العربية والفارسية والسريانية والعبرانية والرومية وغير ذلك من سائر اللغات فكان آدم وولده يتكلمون بها، ثم إن ولده تفرقوا في الدنيا وعلق كل منهم بلغة من تلك اللغات فغلبت عليه واضمحل عنه ما سواها لبعد عهدهم بها [٣٦]وفي رواية عنه أن آدمَ عليه السلام كانت لغتُه في الجنة العربيةَ، فلما عصى سلبه اللهُ العربيةَ، فتكلم السريانيةَ فلما تاب ردَّ عليه العربيةَ [٣٧]فهذا الأثر يثير السؤال حول لغة آدم في الجنة؟ أهي العربية أم السريانية؟ وما أكثر الخلافَ فيها، والحديثَ عنها قديمًا وحديثًا [٣٨]، أكتفي بما ذكره ابن النديم من القدماء من روايات تاريخية تُظهرُ أثرَ آدم وتدل على مدى اتكاء أصحابِ الديانات السماوية عليه لتعضيد ما استقرفي أذهانهم حول صدق ديانتهم، فالنصارى فيما يبدو يحرِصون على أن تكونَ السريانية هي أول لغة تكلم بها آدم، واليهود حرَصوا على أن تكون النبطية، قال ابنُ النديم "قال تيادروس المفسِّرُ في تفسيره للسفر الأول من التوراة: إن اللهَ تبارك وتعالى خاطبَ آدمَ باللسان النبَطي – وهو أفصحُ من اللسان السرياني – وقال آخر: إن في أحد الأناجيل – أو في غيره من كتب النصارى –كما قال ابنُ النديم – أن مَلَكًا يقال له "سيمورس" علَّمَ آدم الكتابةَ السريانيةَ على ما في أيدي النصارى [٣٩]

- وثمة روايةٌ عن كعب الأحبار مشهورةٌ تفيد أنه عليه السلام هو أولُ من وضع الكتابات كلَّها العربيةَ والفارسيةَ وغيرَها من اللغات "قال كعبُ الأحبار: إن أولَ من وضع الكتابةَ العربية والفارسية

---

٣٥ – البحر العميق ٢٤٣٢/٥والظاهر أن المراد من هذا العدد هو أن الله سبحانه وتعالى زوده بشريحة في دماغه تتسع لمثل هذه الأعداد، وإلا ما فائدة الكلام بهذه اللغات؟ومن المحال أن يتكلم بها لأنها غير لازمة له لقضاء حوائجه إذ لم يكن حينئذ معه إلا حواء، فما فائدة تعليمه هذه اللغات من غير ناطقين بها، والعجيب أن بعض المواقع تقول: إن لغات العالم أكثر من سبعة آلاف لغة في العالم، وقيل خمسة آلاف انظر موقع زيادة وموقع اليوم السابع قاموس لغات العالم.

٣٦ – الخصائص ١/

٣٧ – المزهر ٣٠/١

٣٨ – للمزيد في هذا الموضوع راجع ما كتبه الأخ الدكتور عبد الرحمن سليمان المتخصص باللغات السامية، وذلك في موقع مجمع اللغة العربية على الشبكة العالمية ففي تحقيقاته الكثير من الفوائد العلمية النافعة التي تبرز مكانة العربية وأصالتها وتفردها على غيرها من الساميات.

٣٩ – الفهرست، ١٨والظاهر أنه من أثر تعصب أصحاب الديانات لدياناتهم اختلفوا في تصنيف سيدنا آدم فقد نقل صاحب البحر العميق ٢٤٣٠/٥عن المرجاني قوله: وأما آدم عليه السلام فيكنى أبا محمد بالنبي صلى الله عليه وسلم، وأبا البشر أيضا، وآدم عبراني، وقيل: عربي، خلقه الله من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنوه على قدَر الأرض ذوي ألوان "

وغيرها من الكتابات هو آدمُ عليه السلام، وضعَ ذلك قبل موته بثلاثمائة سنة في الطين، وطبخه، فلما أصابَ الأرضَ الطُّوفانُ، سَلِمَ، فوجدَ كلُّ قوم كتاباتهم، فكتبوا بها [٤٠] وثمة رواياتٌ طريفةٌ تؤكد أن آدمَ عليه السلام كان يتكلم باللغة السريانية، وكذلك أولادُه من الأنبياء وغيرِهم، وأنه كان يَعلَمُ سائرَ اللغات، وتبين بعضُ الروايات كما ذكرنا من قبل أن آدمَ كان يتكلم العربية في الجنة ثم تحول إلى السريانية عقابًا له، قال العيني: قيل: كان آدمُ يتكلم باللغة العربية –أي في الجنة –، فلما نزل إلى الأرض حُوّلَتْ لغتُه إلى السريانية " ثم ذكر العيني قولَ ابنِ عباس الذي يوضحُ فيه ما حصل مفصلًا قال: لما تاب الله على آدم، ردَّ عليه العربية [٤١].

- وثمة رواية تفيد أن الله سبحانه وتعالى علَّمَ آدمَ السريانيةَ من غير أن تعْلَمَ الملائكةُ ذلك، قال العينيُّ: فإن قلت: ما أصلُ السريانيةِ؟ قلت: قال ابنُ سلَّام: سُميت بذلك لأن اللهَ سبحانه وتعالى حين علم آدمَ الأسماءَ علمه سرًّا من الملائكة وأنطقه بها حينئذ "[٤٢].

- وثمة خبرٌ مشهورٌ أيضًا مضمونه أن سيدَنا إسماعيلَ هو أولُ من تكلم بالعربية، ونُقِلَ عن ابنِ عباس قولُه: إن أولَ من وضع الكتابَ العربيَّ إسماعيلُ عليه السلام وضعه على لفظه ومَنطقِه [٤٣] وقالوا: إن إسماعيلَ تعلَّمَها من جُرْهُمَ حين تزوج امرأةً منهم[٤٤]، وأيدوا قولهم بحديث شريف فيه "أول من فُتِق لسانه بالعربية المبِينة إسماعيل وهو ابن عشر سنين[٤٥]، ولكن القرطبي بعد كل هذه الروايات، قال: قلنا: الصحيح أن أول من تكلم باللغات كلها من البشر آدم عليه السلام والقرآن يشهد له قال تعالى: "وعلم آدم الأسماء كلها"، والأسماء كلها أسماء، فهي داخلة تحته، وبهذا جاءت السنة قال صلى الله عليه وسلم: وعلم آدم الأسماء كلها حتى القصعة والقُصيعة"[٤٦].

- وتتابعُ الرواياتُ هذه المشاهدَ والصورَ التاريخية التي تبين لنا أصلَ اللغات ويبدو آدم فيها أساسَ القضيةِ، وجوهرَ المشكلة الخلافية حولها، فثمة روايةٌ مشهورةٌ أيضًا أن آدمَ بعد أن كتب سائر اللغات

---

٤٠ – الفهرست، ١٨ والصاحبي، ١٠وذكر ذلك أيضا العيني في عمدة القاري ٥٨/١

٤١ – فكأن السريانية كانت من ضمن العقاب، وفي ذلك إشارة إلى فضل العربية.

٤٢ انظر عمدة القاري ٥٨/١.

٤٣ – انظر الصاحبي ١٠والبحر العميق ٢٤٢٩/٥.

٤٤ – انظر الدر المنثور ٦٥٦/١.

٤٥ – الجامع ٤٢٣/١ وفي الهامش: أخرج الحاكم في المستدرك ٥٥٢/٢وساق ما يشبهه عن ابن عباس.

٤٦ – في هامش الجامع ٤٢٣/١، وأخرجه الطبري ٥١٥/١ موقوفًا على ابن عباس.

في الطين وطبخه جاء الطُّوفانُ، ثم أصاب كلَّ قومٍ كتابَهم فأصاب إسماعيلُ كتابَ العرب، ومما قيل في هذا الشأن أن إبراهيمَ عليه السلام كان يتكلم السريانية أيضًا، وحُوّلَتْ لغتُه إلى العبرانية بعد عبوره نهرَ الفراتِ فارًا من النمرود، وقد كان النمرودُ قال للذين أرسلهم خلفه: إذا وجدتم فتى يتكلم السريانية فردُّوه فلما أدركوه استنطقوه فحوَّلَ الله لسانَه عبرانيًّا، وذلك حين عبرَ النهرَ فسميت العبرانيةَ،

- ومن الآراء الطريفة أيضًا ما ذكروه من أنه ما نزلَ وحيٌ من السماء إلا بالعربية، فكانت الأنبياءُ عليهم الصلاة والسلام تترجمه لقومها، وقال كعبُ الأحبارِ: أولُ من نطق بالعربية جبريلُ عليه السلام، وهو الذي ألقاها على لسان نوحٍ عليه السلام، فألقاها نوح عليه الصلاة والسلام على لسان ابنه سام، وهو أبو العرب[٤٧].

- والروايات كما قال ابن فارس في هذا الباب تكثر وتختلف[٤٨]، "والخلاف – كما قال السهيلي فيما نقله عنه صاحب البحر العميق – كثير في أول من تكلم بالعربية، وفي أول من أدخل الكتابَ العربيَّ أرضَ الحجاز[٤٩].

- ولم تتوقف الرواياتُ في سعيها للوصول إلى معرفة مَنْ أول من تكلم العربية بل تعدتْ هذا الجانبَ للتحدث عن لغة الأموات بعد موتهم فاختلفوا أيضًا، قال الشيخ عبد القادر الجيلاني "أولُ ما

---

٤٧ –عمدة القاري، ٥٨/١ بتصرف.

٤٨ – الصاحبي ١٠، وامتد هذا الخلاف الذي لا طائل من ورائه إلى الخلاف حول لغة أهل الجنة أهي العربية أم السريانية، ثم هل سؤال أنكر ونكير للميت سيكون بالعربية أم بالسريانية، وامتد ذلك إلى لغة اللوح المحفوظ أهو بالسرياني أم بغيرها؟ وهذا الخلاف الأخير تراه فيما ذكره صاحب كتاب الإبريز للشيخ عبد العزيز الدباغ.

٤٩ – البحر العميق ٢٤٣٠/٥ وفي الهامش الروض الأنف ١٣/١، وفي شروح صحيح البخاري ما يفيد أن هناك اتجاهًا قويًا لجعل العربية، هي اللغة الأم في هذه القضية ففي الحديث عن ورقة بن نوفل أنه كان يكتب الكتاب العبراني "أي الكتابة العبرانية يعني كان يكتب من الإنجيل بالعبراني " قال بعض علماء الحديث " وفي رواية بالعربية أي يكتب باللغة العربية من الإنجيل وذلك لتمكنه من دين النصارى ومعرفته بكتابتهم فصار يكتب منه بكل لغة "فتجد فكرة هيمنة "العربية" حاضرة في ذهن العلماء، فأولية اللغة الأم تتنافس عليها الأمم، فاليهود يرغبون أن تكون الأم هي العبرية، والنصارى يرغبون في السريانية، والمسلمون يرغبون في العربية. والظاهر أنها العربية لخصائص تميزت بها وقد أكد الدكتور عبد الرحمن سليمان المتخصص في اللغات السامية في محاضرة له بمجمع اللغة العربية على أن اللغة الأم المفترضة هي العربية.

تكلم آدمُ عليه السلام بالسريانية، ويُحاسبُ الناسُ يومَ القيامة بالسريانية، فإذا دخلوا الجنةَ تكلموا بالعربية بلغة محمد صلى الله عليه وسلم[٥٠].

- – أما القضية المترتبة على أن آدمَ حين نزل من الجنة كان يتكلم العربية، فقد صار أساسًا قويًا لكثير من المحدثين كعبد الحق فاضل وجاسر أبو صفية، والمستشرق بيير الفرنسي وغيرِهم من الذين يقولون: إن العربيةَ هي أم اللغات السامية، وردَّ بعضُ المحدثين ذلك، ولكلٍّ أدلتُه وبراهينُه، والمستفاد من هذا كله أن لسيدنا آدمَ أثرًا واضحًا في إثارة قضيةِ أصلِ اللغات، وإثارةِ قضية لغة آدم في الجنة أهي السريانية أم العربية؟ بعبارة أخرى أراد الله له أن يكون مبعثًا لكثير من القضايا اللغوية.

رابعًا: ومن حضوره اللغوي ما دمنا نقول: إن آدمَ كان يتكلم العربيةَ أن أبياتًا شعرية نُسبتْ إليه في رثاء ابنه هابيل بعد مقتله منها:

بكتْ عيني وحُقَّ لها بُكاها
ودمعُ العينِ منهلٌّ يسيح
فمالي لا أجودُ بسكبِ دمعٍ
وهابيلٌ تضمّنه الضريحُ
رمى قابيلُ هابيلًا أخاه
وأُلحِدَ في الثرى الوجهُ الصبيحُ
تغيرتِ البلادُ ومنْ عليها
فوجهُ الأرض مغبرٌّ قبيحُ
تغيَّر كلُّ ذي لونٍ وطعمٍ
وقلَّ بشاشةُ الوجه المليحِ[٥١]
أيا هابيلُ إن تُقتل فإني
عليك الدهرَ مكتئبٌ قريحُ

قالوا: أجابه إبليس فقال:

---

٥٠ – الفتح الرباني، ٢٥٤وفي الدر المنثور ٣٠٩/١ولعل مما يؤكد ذلك ويبين سبب التحول من العربية إلى السريانية ما ذكره السيوطي بقوله "أخرج ابن عساكر عن ابن عباس أن آدم كان لغته في الجنة العربية فلما عصى سلبه الله العربية، فتكلم بالسريانية، فلما تاب رد الله عليه العربية".

٥١ – أورد السيوطي في الدر المنثور ٢٧٦/٥روايتين واحدة عن سيدنا علي والأخرى عن ابن عباس مع فوارق في الأبيات.

تنوحُ على البلاد ومنْ عليها
وفي الفردوس قد ضاق بك الفسيح
وكنتَ بها وزوجُك في رَخاءٍ
وقلبُك من أذى الدنيا مَريح
فما انفكّتْ مُكايدتي ومَكري

إلى أن فاتك الثمنُ الربيحُ [٥٢]

ورفض بعضُ العلماء أن يكون هناك شعرٌ لآدم بحجة أنه لم يكن يتكلمُ العربيةَ، قال محقق كتاب الدر المنثور: قال ابن كثير: وهذا الشعرُ فيه نظرٌ، وقد يكون آدمُ عليه السلام قال كلامًا يتحزّنُ به بلغته، فألَّفَه بعضُهم إلى هذا، وفيه إقواء والله أعلم، لكن آخرين أكدوا ذلك معتمدين على الرواية القائلة: إنه كان يتكلمُ العربية، فما الذي يمنع من قبول أنه صاحبُ هذا الشعرِ؟ مادام أنه عليه السلام كان في النحو كسيبويه كما قال الفارسي، وعلى كل حال إن مما يستفاد من ذلك أن في ذلك إشارةً إلى أن العربيةَ والشعرَ توءمان، فكأن العربية خلقت وخلق معها الشعر! ومهما يكن من أمر هذا القبولِ أو الرفض، فالأبياتُ نُسبتْ إليه على أنه أول من قال الشعر، والذي يعنينا من هذا كله أن قولَ ابن كثير عن الشعر: وفيه إقواء "جعل ذلك ميدانًا لمناظرةٍ بين النحاة حول تخريج هذا الإقواء، قال الشيخ محمد الطنطاوي في ترجمة السيرافي: "دخل السيرافيُّ على ابن دريد مرةً وهو يقول: أول من أقوى في الشعر آدمُ عليه السلام في قوله:

تغيرتِ البلادُ ومَنْ عليها
فوجه الأرض مغبرٌّ قبيحُ
تغيرَ كلُّ ذي لونٍ وطعمٍ
وقلَّ بشاشةُ الوجه المليحِ

فقال له: يمكن إنشادُه على وجه لا إقواء فيه، وذلك بنصب بشاشة على التمييز، ورفع المليح بـ(قلَّ)، وحذف التنوين لالتقاء الساكنين، فرفعه حتى أقعدَه بجانبه[٥٣].

---

٥٢ – الدر المنثور ٥/٢٧٦

٥٣ – نشأة النحو ١٩٩قال في الهامش: والحادثة مذكورة في أمالي ابن الشجري – المجلس الخامس والأربعون

رابعًا: أما المشهد اللغوي الرابع الذي نرى فيه حضور سيدنا آدم واضحًا، فيبدو من آثاره الدالة على معرفة "علل التسميات"، وظهور فكرة "العلة والتعليل"، وقد بدا لي أنه على نوعين:

الأول: تعليله سبب تسمية زوجه حواء، وسؤاله عن سبب تسمية ذاته بآدم أيضًا، والثاني: أثره في الخالفين حين أرادوا تعليل تسميات بعض الأماكن المقدسة.

- فآدم هنا عليه وعلى نبينا أفضل السلام يؤسس أصلًا علميًا أفادت منه علومُ البشرية كلها، حين تتجه إلى معرفة "علة الأشياء"، فليس ثمة علم لا يبحث عن علة أحكامه وقواعده، لقد أفادتنا الروايات التاريخية أنه عليه السلام أولُ من فكر بتعليل الأسماء، لقد ذكر ابنُ عطية والقرطبي نقلًا عن ابن عباس أنه قيل لآدمَ بعد خلق حواء من هذه؟ قال: امرأةٌ، قيل: وما اسمُها؟ قال: حواء، قيل: ولِمَ سُميت حواءَ؟ قال: لأنها خُلِقتْ من حيٍّ [٥٤]، ورُوي أن الملائكةَ سألته عن ذلك لتجرّبَ عِلمَه[٥٥]، وذكر صاحبُ البحر العميق أن آدم نفسَه سأل ربه عن سبب تسميته بآدم – قال: "يروى أنه قال: يا ربِّ لِمَ سميتني آدم؟ قال: لأني خلقتك من أديم الأرض – وأديمُ الأرض وجهُها، "وأضاف قائلًا"، وخلق الله حواءَ من ضلعه الأيسر[٥٦]، فهذه الروايات تفيد أنه عليه السلام كان تواقًا إلى معرفة الأسباب والوقوف على علل الأشياء، فكأنه يعلِّمُ ذريته أن كل شيء يلزمه تعليل، وهذا أصل اطرد في كل العلوم البشرية العقلية والتجريبية.

- أما الأماكن المسماة التي كان له عليه السلام مع زوجه حضور، فهي:

١- تعليل تسمية ما بداخل الأنصاب التي أحاطت بمكة، فقد أطلقوا على هذه البقعة المحددة لفظةَ الحرم [٥٧]، واختلفوا في سبب تسميتها حَرَمًا:

فمما قيل: إنها سميتْ بذلك؛ لأن آدمَ عليه السلام لما أُهبطَ إلى الأرض خافَ على نفسه من الشيطانِ، فاستعاذ بالله سبحانه، فأرسل الله عز وجل ملائكةً تحرسهُ، فوقفوا في مواضعِ أنصابِ الحرم[٥٨]، وكان وقوفُهم — كما ذكرنا من قبل – على أعلام الحرم صفًا واحدًا مستديرين بالحرم

---

٥٤ – أي من ضلع آدم

٥٥ – المحرر الوجيز، ٢٥٠/١ الجامع للقرطبي، ٤٤٩/١

٥٦ في المحرر الوجيز ٢٥٠/١ عن ابن مسعود خلقت من ضلعه القصيرى بالتصغير وهي أسفل الأضلاع وقيل آخر ضلع من الجنب

(٥٧) انظر شفاء الغرام ٨٥/١ ومنائح الكرم ٢١٥/١.

٥٨) انظر: أخبار مكة، ١٢٧/٢قيل: أول من وضع الأنصاب على حدود الحرم إبراهيم الخليل دله جبريل عليه السلام على

الشريف كله، الحلُّ من خلفهم والحرم كلُّه من أمامهم، فلا يجوزهم جن ولا شيطان، والأرض كانت حينئذ مسكونةً منهم[٥٩]، فصار ما بين البيت وبين مواقفهم حَرَمًا[٦٠]، فكأن دلالةَ الحرم متعلقةٌ به، فهو صاحبها، وهو المثبت لدلالتها الشرعية، يُفهم ذلك من رواياتٍ كثيرة تختلف ألفاظُها، ولكنها تلتقي في نهاية أمرها على أنه كان سببًا في تحديد الحرم، ومِنْ ثمَّ أُطلِقَ الحرمُ على ما بداخل هذه الأنصاب، رُوِيَ عن ابن عباس قولُه: لما أُهبِطَ آدمُ عليه السلام خرَّ ساجدًا معتذرًا إلى الله تعالى فأرسل اللهُ عزَّ وجلَّ إليه جبريلَ عليه السلام بعد أربعين سنة فقال: ارفعْ رأسَك فقد قَبِلْتُ توبتَك فقال: يا ربِّ إنما أتلهفُ على ما فاتني من الطواف بعرشِكَ مع ملائكتك فأوحى اللهُ عزَّ وجلَّ إليه: إني سأُنزِلُ إليك بيتًا أجعلُه قِبلةً، فأهبطَ اللهُ إليه البيتَ المعمورَ [٦١]، وتوضح الروايات مشهدَ ما حصل بعد ذلك لتؤكد لنا أيضًا أن سيدنا آدمَ كان سببًا في إطلاق لفظة "الحرم" على ما بداخل هذه العلامات، قيل: "وكان – أي البيت – ياقوتةً حمراءَ تلتهبُ التهابًا، وله بابان شرقيٌّ وغربيٌّ قد نُظِّمتْ حيطانُه بكواكبَ بيضٍ من ياقوتِ الجنةِ، فلما استقر البيتُ في الارض أضاء نورُه ما بين المشرق والمغرب، فنفرتْ لذلك الجنُّ والشياطينُ، وفزِعوا فراحوا ينظرون في الجوّ ينظرون من أين ذلك النورُ فلما رأَوه من مكةَ، أقبلوا يريدون الاقترابَ إليه فأرسل اللهُ تعالى ملائكةً، فقاموا حوالَي الحرمِ في مكان الإعلام اليوم، فمنعتْهم فمِن ثمَّ ابتُدِئ اسمُ الحرم[٦٢]، فانتهاء الرواية "فمن ثم ابتدئ اسم الحرم "يعني أن لفظة الحرم بمدلولها الشرعي انبثقتْ من هذه البقعة الشريفة، وكان سيدُنا آدمُ هو العنصرَ الرئيسَ في مشهد ولادتها.

٢- تعليل تسمية عرفات: هناك أقوالٌ كثيرةٌ ذكروها في سبب تسمية أرض الموقف "عرفات"، منها: أنها سميت بذلك؛ لأن آدم وحواء تعارفا فيها، قالوا: لقد هبط عليه السلام بوادي سرنديب – كما

مواضعها بعد قوله: ربنا أرنا مناسكنا. أخبار مكة ١٢٨/١ ومنائح الكرم ٢١٦/١

٥٩ – أخبار مكة، ٣٨/١

٦٠ – منائح الكرم ٢١٥/١و عدة الإنابة ١٤٨ وقيل: إن السبب هو أن الحجر الأسود لما وضعه الخليل عليه السلام في الكعبة حين بناها أضاء يمينا وشمالا، وشرقا وغربا، فحرم الله عز وجل من حيث انتهى النور،

٦١ – وفي أخبار مكة للأزرقي ٥١/١ أن البيت المعمور الذي هو الآن في السماء كان في مكة رفعه الله إلى السماء زمن الطوفان

٦٢ – البحر العميق ١٠١٣/٢

قال أبو حيان – وهو جبل في سريلانكا الآن – وهبطت حواءُ في جدة، وقد أمره الله ببناء الكعبة فجاء ممتثلًا، فتعارفا بهذه البقعة[63].

٣- تعليل تسمية المزدلفة، قيل: إن المزدلفةَ سميتْ بذلك لأن آدم وحواءَ اجتمعا فيها لما أُهبِطا إلى الأرض – وليس في عرفات – لأن الازدلافَ معناه الاجتماع [64]وقيل: سمي بجُمع لأنهما اجتمعا فيه [٦٥] وللتوفيق بين قول من قال إنهما تعارفا في عرفات وقول من قال إنهما اجتمعا في المزدلفة نقول: إنهما تعارفا في عرفات ثم ازدلفا إلى المزدلفة التي هي جمع أي تم لهما الاجتماع فيها.

٤- تعليل تسمية منى: أقوالٌ كثيرةٌ تبينُ سببَ تسمية هذا الجبلِ بهذا الاسم، منها ماقاله ابنُ عباس: أنها سميتْ بذلك لأن جبريلَ عليه السلام حين أرادَ أن يفارقَ آدمَ عليه السلام قال له: تَمَنَّ، قال أَتَمَنَّى الجنةَ، فسميتْ (مِنىً) مُنيةُ آدم عليه السلام[٦٦].

٥- تعليل تسمية يوم التروية، قيل: سُمي يومَ التروية لأن آدمَ عليه السلام رأى حواء فيه بعد ما هبطَ إلى الأرض [٦٧]وأحسب أن الأمر لو كان كذلك لقيل عنه: يوم الرؤية أو يوم الترئية وليس التروية، لكن الذي قال ذلك: أراد أنهم اختلفوا في مكان الرؤية فمنهم من قال عرفات ومنهم من قال في منى يوم التروية، والمتجه في سبب تسمية يوم التروية هو فيما قاله ابن منظور قال: ويوم التروية يومٌ قبلَ يوم عرفة، وهو الثامن من ذي الحجة، سمي به لأن الحجاج يترَوَّوْنَ فيه من الماء وينهضون إلى منى ولا ماء بها فيتزودون رِيَّهم من الماء أي يسقون ويستقون [68].

---

63 – البحر المحيط، ٨٣/٢ والمحرر الوجيز ٢٥٩/١ وقيل: سميتْ بذلك لمعرفة إبراهيمَ عليه السلام بهاجر وإسماعيلَ بها، وذلك لأن سارةَ كانتْ قد أَخرجتْ إسماعيلَ في غيبةِ إبراهيمَ، فانطلقَ في طلبه حتى وجدَه وأُمَّه بعرفات. وفي أخبار مكة للأزرقي: ٦٧/١ أن جبريل حج مع إبراهيم ليعرّفه المناسكَ والمشاعر حتى انتهى إلى عرفة فلما انتهى إليها قال له جبريل: أعرفت مناسكك؟ قال إبراهيم: نعم؟ قال: فسميت عرفات بذلك لقوله: أعرفت مناسكك " ومن الطريف أيضًا أن إبليس نزل على الأُبُلَّةِ – موضع في العراق – وحواء في جدة والحية في سجستان انظر الجامع للقرطبي ٤٧٥/١وذكر في ٤٦٦/١ أن الحية كانت في الجنة خادمة لآدم عليه السلام فخانته بأن مكنت إبليس من نفسها، وروي أن إبليس قال لها: أدخليني الجنة وأنت في ذمتي فكان ابن عباس يقول: أخفِروا ذمة إبليس".

64 – عدة الإنابة ٨٤.

٦٥ – البحر المحيط، ١٦/٣ واللسان، جمع.

٦٦ الدر المنثور٤٦٠/٢.

٦٧ – البحر العميق ١٤٠٤/٣

68 – اللسان، روي

٦- تعليل تسمية الصفا والمروة: قيل: سُمِّيَ الصفا بالتذكير، لأن آدمَ صفيَّ الله، جلسَ عليه، وسميت المروةَ بالتأنيث، لأن حواء جلستْ عليه [69] وفي رواية أخرى أن الصفا قال له حين أتاه: أرحّبُ يا صفيَّ الله، ووقفت حواءُ على المروة فسميت لذلك باسم المرأة، وأنّثَ لذلك [70]فقول الرواية وأنث لذلك يفيد أن تأنيث المروة وتذكيرَ الصفا سببُهما آدمُ وحواء. ولولا ذلك لكانا مذكرين على اعتبار أنهما اسما موضعين مذكرين.

٧- تعليل اسم الجمرات مما ذكروه أن موضعَ الجمرات سمي بذلك لأن آدمَ عليه السلام، كان يرمي إبليسَ بالحصَى في مِنىً، فأجْمَرَ إبليسُ بين يديه أَي أَسرعَ، لأن من معاني أَجمر .: الإسراع(٧١).

- خامسًا: أما الأثر الأكثرُ ظهورًا لسيدنا آدم وزوجِه فهو يتجلى في ورود آيات قرآنية كثيرة فيها ذكر لادم وأخباره، وكثيرٌ من هذه الآيات الكريمةِ تتضمن قضايا نحويةً توقف فيها النحاة وصارت شواهد على قواعدهم ميدانًا لتأويلاتهم النحوية نكتفي بأربعة منها تؤكد على ما ذكرناه ويتضح منها مدى حضور سيدنا آدم وحواء معا وأحيانا لآدم فقط في مشاهدها

، أما الأولى فهي قوله تعالى "ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم "لقد ذكر هذه الآية عدد من النحاة ردًّا على من أنكر أن "ثم" تفيد الترتيبَ قالوا: لأن أمرَ الملائكة بالسجود لآدم كان قبل خلقنا وتصويرنا، وأجيب عن ذلك بأن التقدير: خلقنا أباكم ثم صورناه ى ثم قلنا للملائكة اسجدوا، فحذف المضاف منهما، ونسب الخلق والتصوير إليهم، لأنهم فرعه، والنعمة الحاصلة للأصل حاصلة للفرع، وثمة جواب آخر ذكروه، فقالوا: إن "ثم" هنا نائبة عن الواو كما في قوله تعالى: "خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها "- الزمر ٦- والدليل على أن "ثم" هنا بمعنى الواو هو ورودها في آية أخرى من سورة الأعراف -١٨٩- بالواو، وذلك في قوله تعالى "هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها"، والقصة واحدة، فدل ذلك على أن "ثم" قد تأتي بمعنى الواو، ولا شك أن

---

69 - روح المعاني ٢/٢٥

70 - البحر العميق ١/٢١٣

(٧١)اللسان (جمر)، والبحر العميق، ٣/١٦٥٩. وقيل: إنما سمي جمرةَ، لأن إبراهيم عليه السلام لما أمر بذبح الولد جاءه الشيطان يوسوسه، فكان إبراهيم يرمي إليه بالأحجار طردًا له وكان يجمُر بين يديه أي يسرع في المشي والإجمار الإسراع

"ثم" إذا كانت بمعنى الواو في الآية التي نحن بصددها، فدلالة الترتيب فيها واضحة من القرينة الخارجية المتمثلة فيما رُوي لنا من مرويات وآثار مذكورة في مظانها من كتب التفسير والتاريخ[٧٢].

- أما الآية الثانية فهي قوله تعالى: "فسجد الملائكة كلهم أجمعون" الحجر ٣٠، فقد ذكرها بعض النحاة كابن هشام للاستدلال على أنه إذا أريد بأجمع وأخواته يجوز أن نأتي بها بعد لفظة كل، كما هو الشأن في الآية الكريمة، وأجاز آخرون التوكيد بها من غير أن تسبقَ بلفظة كل، ومن ذلك قوله تعالى: "وإن جهنم لموعدهم أجمعين؟ الحجر ٤٣، وانتهى الخلاف إلى جواز الوجهين، واستطرد ابن هشام في كتابه شرح شذور الذهب ليتحفنا برقيقة لغوية بلاغية جميلة نافعة، قال: قال بعض العلماء في قوله تعالى (فسجد. . . الآية) فائدةُ ذِكْرِ (كل) رفعُ وهمِ من يتوهم أن الساجدَ البعض، وفائدةُ ذكر (أجمعون) رفعُ وهم من يتوهم أنهم لم يسجدوا في وقت واحد، بل سجدوا في وقتين مختلفين، والأول صحيح، – كما قال ابن هشام – والثاني باطل، بدليل قوله تعالى لأغوينهم أجمعين "لأن إغواء الشيطان لهم ليس في وقت واحد، فدلَّ على ان أجمعين لا تعرض فيه لاتحاد الوقت، وإنما معناه كمعنى كل سواء، وهو قول جمهور النحويين، وإنما ذكر في الآية تأكيدًا على تأكيد كما قال تعالى (فمهل الكافرين أمهلهم رويدًا)؛ الطارق ١٧– [٧٣]، واستظهر بعض النحاة رأيَ الفراء والمبرد فذكروا أن أجمعين في قوله تعالى (لأغوينهم أجمعين)تدل على اتحاد الوقت لأن المراد في الآية جميع أيام الدنيا بدلي قوله تعالى (إلى يوم الوقت المعلوم) الحجر٣٨، فجعل أيام الدنيا كلها بمنزلة وقت واحد، مما يدل على أنها أفادت اتحاد الوقت والجمهور على ان الإغواء لم يجتمع في وقت واحد، وان (أجمعين) تفيد مطلق العموم بغير تقييد باتحاد الوقت[٧٤].

- أما الآية الثالثة فهي قوله تعالى: (فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى)، لقد أفادتنا هذه الآية أنه يجوز أن يعود الضمير مفردًا على الاثنين، فقد أفردَ الضميرَ في فتشقى، مع أن المخاطَبين اثنان هما آدم وحواء، لقد ذكر الثعالبي في كتابه فقه اللغة هذه الآية مبينًا بها أن هذا الأسلوب هو أسلوب عربي قرآني أصيل قال: "فصل في مخاطبة اثنين ثم النص على أحدهما دون الآخر": العرب تقول: ما فعلتما يا

---

٧٢ – انظر لذلك كله شرح جمل الزجاجي لابن عصفور، ٧٣١/١ والمغني ٩٠٣ وشرح الأزهرية ة١٠١ والكواكب الدرية للأهدل ١٠٩/٢/

٧٣ – شرح شذور الذهب ٤٣٢

٧٤ – انظر: شرح شذور الذهب ٤٣١ وهمع الهوامع ١٢٤/٢ وشرح الأشموني ومعه حاشية الصبان ٨٤/٣وإعراب الشواهد القرآنية في قطر الندى ٣٢٠

فلان؟ وفي القرآن "فمن ربكما يا موسى"، وفيه: "فلا يخرجنَّكما من الجنة فتشقى"، خاطب آدم وحواء، ثم نص في إتمام الخطاب على آدم وأغفل حواء[75]، وفي هذه الآية مع غيرها من الآيات القرآنية أخرى؛ كقوله تعالى: (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها)، فقال ينفقونها مع أن المرجع هما اثنان (الذهب والفضة)، فكان من المتوقع أن يقول: ينفقونهما، فهاتان الآيتان رد على من يهرطقُ في هذه الأيام ويزعمُ أن أبا بكر الصديق لم يكن مع الرسول في الغار، وأن الذي معه هو عبد الله بن أُريقط الليثي دليلُه إلى المدينة، وقد استدلَّ هذا الجاهل بقوله تعالى: { إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [التوبة: ٤٠]، يقول هذا الجاهل: إن الضمير في "عليه" عاد مفردًا فلو كانا اثنين، لقال: أنزل سكينته عليهما، والجواب: أن هذه الظاهرة اللغوية من سنن العرب وها هو القرآن يصورها في الآيتين السابقتين وبذلك يفسر قوله تعالى: أنزل سكينته، "بإفراد الضمير، يعني ما زعمه هذا الزاعم كله خطأ، فجاءت آية (فلا يخرجنكما. . الآية) دليلًا على أن هذا الزاعمَ وشيعتَه لا يفهمون العربية.

- وكان له أيضًا حضور عند المفسرين، فقوله تعالى: "ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس"، قيل: المراد بالناس آدم عليه السلام؛ لأنه قد قُرئ "الناسي" بدل الناس؛ أي بكسر السين، قالوا: المرادُ آدم عليه السلام لقوله تعالى: "فنسي"، وقيل: المراد: إبراهيمُ عليه السلام، وسمي ناسًا لأنه كان إمامًا للناس"، وقيل: المراد سائرُ العرب[٧٦]، وهو المتجه والله أعلم.

- وإذا التفتنا إلى الأحاديث النبوية الشريفة نلتمس حضورًا لسيدنا آدم، فسنرى الكثير الكثير، لكني وجدت حديثًا أثار خلافًا لغويًّا وعقديًّا، أو لنقل اختلف العلماء في تفسيره والوقوف على المراد منه بدقة هذا الحديث هو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى رجلًا يضربُ غلامَه على وجهه

---

75 – فقه اللغة ٣٣٣ولكي لاأقطع الفائدة قالوا: الضمير يعود على الرسول، وقيل: يعود على أبي بكر، قال ابن العربي وهو الأقوى، لأنه خاف على النبي صلى الله عليه وسلم من القوم، وقالت الإمامية: إن حزن أبي بكر دليل على ضعفه وجهله ونقصه وأجاب ابن العربي وغيره: أن هذا ليس بنقص كما لم ينقص إبراهيم حين قال عنه: نكِرَهم وأوجسَ منهم خيفة قالوا: لاتخف " ولم ينقُصْ موسى قولَه: فأوجس في نفسه خيفة موسى قلنا لاتخف"وقالوا: إن حزن الصدّيق لم يكن لشك وحيرة، وإنما كان خوفًا على النبي صلى الله عليه وسلم أن يصل إليه ضرر، ولم يكن النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك الوقت معصومًا من الضرر، فكيف يكون الصدّيق في ذلك الوقت ضعيفَ القلب " انظر: أحكام القرآن لابن العربي ٥١٥/٢وما ذكرناه هو الأولى فيما أحسب لأنه يقطع زعمات المرجفين بكونه ظاهرة لغوية درج عليها العرب.

٧٦ – البحر العميق ١٥٠٦/٣وروح المعاني ١٩٨/١ بتصرف

لطمًا فزجره عن ذلك، وقال: خلق الله آدمَ على صورته"[٧٧]، وتأول العلماء عودة الضمير في "صورته" على وجوه منها:

- أن الضمير عائد على المضروب وجهه يعني خلق الله آدم على صورة هذا الغلام المضروب[٧٨].

- وقيل: إنه عائدٌ على اسم الله تبارك وتعالى، والمعنى أن اللهَ خلقَ آدم على الصورة التي أنشأه اللهُ عليها وقدَّرَهَا، ثم قيل: إن الصورةَ هنا بمعنى الصفة كما يقال: عرَّفني صورةَ هذا الأمر أي صفتَه، فالمعنى خلق الله آدمَ على صفته أي حيًا عالمًا سميعًا بصيرًا متكلمًا، وقال ابن باز: لا يلزم من ذلك أن تكون صورتُه سبحانه وتعالى على صورة الآدمي كما أنه لا يلزم من إثباتِ الوجهِ واليدينِ والأصابعِ والقدمِ والرِّجلِ والغضب وغير ذلك من صفاته أن تكون مثلَ صفات بني آدم فهو سبحانه وتعالى موصوفٌ بما أخبرَ عن نفسه أو أخبرَ به رسولُه صلى الله عليه وسلم على الوجه اللائقِ به من دون أن يشابه خلقَه في شيء من ذلك [٧٩]أي آدمُ له وجهٌ يليق به كما أن اللهَ سبحانه وتعالى – له وجهٌ يليقُ به، والمعنى العام أن لآدم صورةً مشتملةً على صفات نظير الصفات التي أُثبتت للرحمن[٨٠]، والإضافة هنا للتشريف والتكريم فهي كقوله تعالى: "ناقة الله" الأعراف ٧٣، وكما يقال في الكعبة: بيت الله وبين ابن بطال وجه التشريف والتكريم فقال: وطريق ذلك أن اللهَ هو الذي ابتدأ تصويرَ آدم على غير مثال سبق بل اخترعَه ثم اخترعَ مَنْ بعدَه على مثاله، فتشرّفتْ صورتُه بالإضافة إليه لا أنه أُريد به إثباتُ صورةٍ لله تعالى على التحقيق هو بها مصور[٨١].

- وقيل: إن الضمير عائد على آدم صلوات الله على نبينا وعليه، والمعنى أنه خُلق في أول نشأته على صورته التي كان عليها في الأرض وتوفي عليها ولم ينتقل أطوارًا كذريته، [٨٢] قال ابن حجر: أوجده على الهيئة التي خلقه عليها لم ينتقلْ في النشأة أحوالًا، ولا ترددَ في الأرحام أطوارًا كذريته بل خلقه الله رجلًا كاملًا سويًا من أول ما نفخَ فيه الروحَ، ثم عقب ذلك بقوله " وطولُه ستون ذراعًا فعاد الضميرُ

---

٧٧ – وثمة رواية أخرى خلق الله آدم على صورته طوله ستون ذراعًا" وفي هامش الجامع للقرطبي ٤٩٣/٦ أن الحديث في صحيح البخاري ٦٢٢٧ وصحيح مسلم ٢٨٤٢وعند أحمد٨١٧١.

٧٨ – تعريف الأحياء بفضائل الإحياء، لعبد القادر العيدروس، ٤٥/٥ مطبوع بهامش الإحياء للغزالي الفكر.

٧٩ – موقع الإمام ابن باز، مقال بعنوان "معنى خلق الله آدم على صورته "

٨٠ – موقع الدكتور عبد الكريم الخضيري، معنى حديث خلق الله آدم على صورته، والظاهر أنه أشار بكلمة الرحمن إلى حديث آخر فيه هذه اللفظة قالوا: الحديث ضعيف انظر الألوكة، مقال سيد مبارك خلق الله آدم على صورته

٨١ – الألوكة سيد مبارك "خلق الله آدم على صورته والنقل عن ابن بطال شرح البخاري ٧١/٣.

٨٢ – موقع الألوكة

أيضًا على آدم [٨٣] ولو أردنا متابعةَ أقوال العلماء في شرح هذا الحديث وما قالوه حول مرجع الضمير لا ستغرق ذلك الكثير من الصفحات، والخلاصة التي نجتنيها من ذلك كله أن لسيدنا آدم أثرًا في تنشيط الحركة العلمية اللغوية والعقدية عند علمائنا.

- ومن فوائد هذا الحديث الشريف الذي فيه "طوله ستون ذراعًا"، ما يشعر بأنه عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام — هو سببٌ في إيجاد صيغة التحية الإسلامية أي السلام عليكم "قال القرطبي بعد ذكره الحديث الشريف: فلما خلقه قال: اذهبْ فسلّم على أولئك النّفرِ – وهم نفرٌ من الملائكة جلوسٌ – فاستمعْ ما يُجيبونك، فإنها تحيتُك وتحيةُ ذر يتِك، قال: : فذهبَ فقال: السلام عليكم، فقالوا: السلام عليكم ورحمة الله، فزادوه: ورحمةُ الله، قال: فكلُّ من يدخلِ الجنةَ على صورة آدم طولُه ستون ذراعًا فلم يزلِ الخلقُ ينقصُ بعدَه حتى الآن [٨٤].

-

- ومما عرضته كله أخلص إلى ما يأتي:

- ١- أنه لا مانع من القول: إن لفظ آدم عربي ممنوع من الصرف للعلمية ووزن الفعل، سواء أكان مشتقا من الأدمة أو من أديم الأرض، للتداخل المعنوي بين معنى أديم الأرض والأدمة حتى كأن المعنى واحد أما حواء فلا جدال أنه لفظ عربي وكغيره من الأسماء التي يجوز فيها المنع من الصرف وعدمه.

- يعد سيدنا آدم أول من فكر في تعليل الأشياء، فهو مؤسس فكرةِ التعليلِ التي باتتْ أصلًا من أصول نواميس الكون وقوانينه العامة، ومن مستلزمات العلوم العقلية والتجريبية. ولا نستبعد قدرته في ذلك فقد وصفوه بكمال العقل بل هو من أرجح الخلق عقلًا [85].

- كان لسيدنا آدم وحواء حضور واضح في تعليل بعض الأسماء المقدسة كمنًى وعرفات والمزدلفة وجمع أي كان لهما حضور واضح ظاهر في التاريخ اللغوي لمكة المكرمة.

- أن من مظاهر حضوره اللغوي الحديثَ عن أصل اللغة التي تكلم بها؟ والتي سيتكلم بها الخلقُ؟ يعني أنه صار قطبًا ترنو إليه عقول الباحثين لعلها تقف على آثار من أخباره تكشف لنا ما ظنه بعضُ العلماء أن لا فائدةَ في البحث عنه إذ ربما تغيرُ بعضَ الأفكار التي وقف أصحابُها عاجزين عن الوصول

---

٨٣ – موقع الألوكة، سيد مبارك، خلق الله آدم على صورته.

٨٤ الجامع ٦/٤٩٣

85 – الجامع للقرطبي ١/٤٥٠-٤٥٢

إلى حقيقتها كإقفالهم الحديثَ عن أصلِ اللغات ونوعِ اللغة التي تكلم بها آدمُ وزوجُه أقول: ربما بان لنا من مراجعة هذه المرويات التاريخية ما يفيدنا في الكشف عما غمض في البحث العلمي من نحو نشأة اللغة ونوعها ونظامها البدائي.

- أنه لا مانع للكشف عن قضايا اللغة من الاعتماد على أقوال صحابتنا الأكرمين والتابعين وآثارنا اللغوية لأنها قد توضح لنا المشاهد التاريخية اللغوية، ويكفي أنهم صُدُقٌ، ولا داعي للقول: إنه من الإسرائيليات، فنحن في اللغة قد نحتاج في تفسير الظواهر اللغوية إلى هذه المروياتِ، ولا ننسى أنه لا يشترط في المسموع عندنا العدل بل هو شرط في الناقل ثم لاشك أن الصحابةَ والتابعين الناقلين عدول، لذا فمروياتهم يستدل بها على تفسير قضايانا اللغوية، وأحسب أننا لو أفدنا من أقوالهم في هذا الشأن فسوف نكشف الكثيرَ من هذه القضايا التي قال عنها بعض العلماء: إنه لا طائل من ورائها وإن البحث فيها ضياع للوقت والجهد، فالذي أعتقده أنه واجب فمن أقلِّ فوائدِه تأصيلُ أسس اللغة، ومعرفة نظامِها الأولي الذي تكونت منه وإني لعلى يقين أن البحث في مثل هذه الموضوعات تفتق حجبَ العقل ليصلَ إلى كثير مما يمكن أن يصل إلى اليقينيات بدلًا من إبقائه تحت ما هو مظنون فيه، لذا فإني أشجع الطلاب والباحثين على الولوج إلى هذا الميدان ففيه الكثير من الفوائد التي تعود على درسنا اللغوي بالخير والنفع، ولعل هذه المحاولةَ التي قدمناها الآن تصير إضاءة للباحثين كي يتجهوا إلى الدراسات التي يمكن أن نلتمسها من تاريخ مكة العظيم.

المصادر والمراجع:

- أحكام القرآن لابن العربي، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.
- أخبار مكة للأزرقي، تحقيق: رشدي ملحس، الطبعة الثامنة، ١٤١٦هـ. ١٩٩٦م.
- أسماء الكعبة المشرفة في الدرس اللغوي ومعه بركة مكة المكرمة على التأليف اللغوي، للدكتور رياض الخوام، المكتبة المكية، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ- ٢٠٠٨م.
- إعراب الشواهد القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة في كتاب قطر الندى، لرياض الخوام، مكتبة المتنبي، الدمام. الكبعة الأولى، ١٤٤٠هـ -٢٠١٩م.
- البحر العميق، للضياء الحنفي، تحقيق الدكتور عبد الله مزي، المكتبة المكية، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ ٢٠٠٦م.

- البحر المحيط لأبي حيان، دار الفكر، ١٩٨٣م.
- تعريف الأحياء بفضائل الإحياء، لعبد القادر العيدروس، الطبعة الثانية، دار الفكر، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩.
- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، تحقيق الدكتور عبد الله التركي، ومشاركيه، مؤسسة الرسالة الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ -٢٠٠٦م.
- الدر المنثور، للسيوطي، تحقيق التركي، ومركز هجر، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ -٢٠٠٣م.
- روح المعاني للآلوسي، دار الفكر، بيروت، ١٣٩٨- ١٩٧٨م.
- شرح الأزهرية للأزهري، الطبعة الثانية، البابي الحلبي، ١٣٧٤هـ -١٩٥٥م.
- شرح الأشموني ومعه حاشية الصبان، طبعة البابي الحلبي.
-شرح جمل الزجاجي لابن عصفور، تحقيق الدكتور صاحب أبو جناح، وزارة الأوقاف العراقية، ١٤٠٠هـ -١٩٨٠م.
- شرح قطر الندى، لابن هشام، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر للطباعة والنشر.
- شرح شذور الذهب لابن هشام، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر.
- شفاء الغرام، للفاسي، تحقيق الدكتور عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ -١٩٨٥م.
- الصاحبي لابن فارس، تحقيق السيد أحمد صقر، البابي الحلبي وشركاه.
- عدة الإنابة في أماكن الإجابة، للمحجوب (المتقي الحنفي)، تحقيق الدكتور عبد الله مزي، المكتبة المكية، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ ٢٠٠٨م.
- عمدة القاري، للعيني، الطبعة الأولى، ١٣٩٢هـ- ١٩٧٢م، البابي الحلبي.
- الفتح الرباني، للجيلاني، دار الكتب العلمية.
- فقه اللغة، للثعالبي، تحقيق مصطفى السقا وزميليه، الطبعة الأخيرة، ١٣٩٢هـ. ١٩٧٣م.
- الفهرست لابن النديم، دار المعرفة للطباعة والنسر، بيروت، لبنان.
- الكتاب لسيبويه، تحقيق عبد السلام هارون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٧م.
- الكواكب الدرية للأهدل، مصطفى البابي الحلبي، ١٣٥٦هـ -١٩٣٨م.

- اللباب لابن عادل، تحقيق عادل احم عبد الموجود وعلي معوض، دار الكتب العلمية، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.
- لسان العرب لابن منظور، تحقيق: عبدالله علي الكبير وزملائه، دار المعارف، مصر.
- لواقح الأنوار (طبقات الشعراني)، دار الفكر.
- المحرر الوجيز لابن عطية، تحقيق: الأنصاري وآخرين، الدوحة - قطر، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ ١٩٨٨م.
- المزهر للسيوطي, تحقيق محمد أحمد جاد المولى وزملائه، مطبعة عيسى البابي الحلبي وأولاده، مصر.
- مسند الإمام أحمد بن حنبل، مؤسسة الرسالة، تحقيق مجموعة من الباحثين، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ- ٢٠٠١م.
- المغني لابن هشام تحقيق الدكتور مازن المبارك وزميليه، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٩م.

منائح الكرم في أخبار مكة والبيت وولاة الحرم, للسنجاري، تحقيق: الدكتور جميل المصري، جامعة أم القرى، الطبعة الأولى، ٤١٩هـ -١٩٩٨م.

- همع الهوامع للسيوطي، طبعة دار المعرفة، بيروت، لبنان.
- المواقع:
- موقع أتباع المرسلين.
- الألوكة - موقع ابن باز — موقع الدكتور عبد الله الحضيري - موقع عربي.

تتمات للبحث:

- لعل مما يقوي ذهابنا إلى أنه عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام كان مؤسسًا لفكرة التعليل أن كتب التفسير والتاريخ ذكرت روايات فيها تعليل لكثير مما يتعلق بحياة الناس ومعاشهم، فمما التقطته:

- تعليل الصلع في ذريته قالوا: أهبط آدم بسَرَنديب في الهند بجبل يقال له "نوذ" ومعه ريح الجنة، فعلق بشجرها وأوديتها، فامتلأما هنالك طيبًا، فمن ثم يؤتى بالطيب من ريح آدم عليه السلام، وكان السحاب يمسح رأسه، فأصلع فأورث ولده الصلع[٨٦].

---

٨٦ - الجامع للقرطبي ١/٤٧٥

– ومن طرائف ما قرأته أن السبابة أطلق عليها "المسبِّحة بسبب آدم عليه السلام قيل: إن آدمَ عليه السلام اشتاق في الجنة لرؤية سيدنا محمد عليهما الصلاة والسلام، فأوحى الله إليه، وجعل النور المحمدي في إصبعه المسبحة من يده اليمنى، فسبح ذلك النور، فلذلك سميت تلك الإصبعُ مسبحةً[٨٧].

٨- لم يقتصر أثر آدم على الجانب اللغوي، بل تعداه إلى جوانب أخرى، ففي تاريخ بناء الكعبة نرى حضوره أيضًا حين علقوا على قوله تعالى: "إن اول بيت وضع للناس"، فمما قالوه: هو أول بيت بنته الملائكة، وقيل هو أول بيت بناه آدم عليه السلام، وقيل: هو أول بيت حُجَّ بعد الطوفان، وقيل: هو أول بيت ظهرَ للناس على وجه الماء عند خلق السماء والأرض [٨٨]وآدم هو الذي نشر العطر والطيب للإنسانية، فعن عطاء بن رباح أن آدم هبطَ بأرض الهند ومعه أربعةُ أعواد من الجنة، فهي هذه التي يتطيب الناسُ بها [٨٩]وقيل نزل ومعه الباسنة ونخل العجوة، قال أبو محمد الخزاعي: الباسنة: آلاتُ الصناع قال الهروي ليس بعربي محض[٩٠].

٩- دعوات آدم عليه السلام نقل صاحب البحر العميق عن الأزرقي قوله: عن سليمان بن بريدة عن أبيه: قال: طاف آدم عليه السلام حين نزل بالبيت سبعًا ثم صلى تجاه الكعبة ركعتين ثم أتى الملتزم فقال: اللهم إنك تعلم سريرتي وعلانيتي فاقبل معذرتي وتعلم ما في نفسي فاغفر لي ذنوبي وتعلم حاجتي فأعطني سؤلي اللهم إني أسألك إيمانا يباشر قلبي ويقينا صادقا حتى أعلم أنه لن يصيبني إلا ما يكتب لي والرضا بما قضيت عليَّ فأوحى الله تعالى إليه: يا آدم قد دعوتني بدعوات واستجبت لك ولن يدعوني بها أحد من ولدك إلا كشفت همومه وكففت عليه ضيعته ونزعت الفقر من قلبه وجعلت الغنى بين عينيه وتجرت له من وراء تجارة كل تناجر وأتته الدنيا وهي راغبة وإن كان لا يريدها قال: فمنذ طاف آدم عليه السلام كان سنة الطواف[91].

عن عطاء بن رباح أن آدم حج البيت فطاف بين الصفا والمروة وقضى مناسك الحج، وعن أبي المليح قال كان أبو هريرة يقول: حج آدم عليه السلام فقضى المناسك فلما فرغ قال: يا رب إن لكل عامل أجرًا، قال الله تعالى أما أنت يا آدم فقد غفرت لك، فحج آدم فاستقبلته الملائكة بالرد فقالت: بُرَّ

---

٨٧ – خزينة الأسرار ٦٩ نقلاً عن الروض الفائق للحريفيش.

٨٨ – عدة الإنابة، ٤٤ وانظر المحرر الوجيز ٢٢٢/٣

٨٩ – البحر العميق ٧٦/١

٩٠ البحر العميق ١٧٣/١

91 – البحر العميق ١٨٨/١

حجك، إنا قد حججنا هذا البيت قبلك بألفي عام، قال فما كنتم تقولون حوله ى؟ قالوا: كنا نقول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر[92]، قيل: أول من اتخذ الإزار من أولاد آدم موسى عليه السلام [٩٣]، قيل إن نواة النخلة خلقت من فضلة طين آدم عليه السلام [٩٤].

– بعض الآثار تشير إلى أنه كان سببًا من أسباب التنبيه إلى بعض الفضائل رُوِيَ أن آدم عليه السلام طاف بالبيت سبعًا حين نزل، ثم صلى تجاه باب الكعبة ركعتين [٩٥]، وربط بعض المؤرخين هذا بتفضيل الصلاة في هذا المكان، فرووا أن جبريل صلى أمام الرسول مرتين في هذا الموضع، ثم ساقوا قصة آدم توكيدًا لتفضيل الصلاة في هذا الموضع[٩٦]، ويتصل بهذا ما ذكروه أيضًا بأن آدم ركع إلى جانب الركن اليماني ركعتين [٩٧]، ويتصل بهذا أن العلماء حين حثوا على صوم العشر من ذي الحجة دعموا أقوالهم بالكثير من الأحاديث النبوية الشريفة وأقوال العلماء، وقووا رواياتهم بأن اليوم الذي غفر الله فيه لآدم هو أول يوم من ذي الحجة، فمن صام ذلك اليوم غَفَرَ اللهُ له كلَّ ذنب"[٩٨].

– قيل: إن يوسف عليه السلام كان في جماله يشبه آدم قبل الخطيئة، فقد كان جميلًا جدًّا نقلته من روح المعاني.

– رُوي أن الله سبحانه وتعالى أخذ العهد من ذرية آدم ببطن نعمان[٩٩] وقيل: إنه عند الحجر الأسود أخذ الله الميثاق من بني آدم قالوا: كتب في رق، وألقم هذا الحَجرَ من أجل ذلك يقول العبد عند موافاته إيمانًا بك ووفاءً بعهدك فيطابق لفظ قوله هذا ومعناه وليستحضر بمحضر الإيمان في ذهنه ذلك المشهدَ حتى كأنه يشاهده، وليعلم أن من رجع عن الإقرار ونكث بعد العهد فقد استحق المقتَ على ذلك وباء بالصد والطرد[١٠٠].

---

92 البحر العميق ٧٧/١

٩٣ – ٦٣٥/٢

٩٤ – البحر العميق ٩٢٠/٢

٩٥ – البحر العميق١٩٢/١

٩٦ – البحر العميق ١٩١/١

٩٧ – البحر العميق ١٩٥/١

٩٨ – البحر العميق ٢٢٧/١

٩٩ – البحر العميق٢٩١/١

١٠٠ – البحر العميق ٣٢٨/١

-يروى أن آدم عليه السلام كان يرمي إبليس لعنه الله فيسرع هاربًا[١٠١].

- قيل: هناك أيام نحسات يستحسن عدم السفر فيها منها قالوا: ما من شهر إلا وفيه سبعة أيام نحسات، فاليوم الثالث نحس، فيه قتل قابيل هابيل، واليوم الخامس نحسٌ، فيه أخرج آدم عليه السلام من الجنة، وفيه أرسل العذاب على قوم يونس، وفيه طرح يوسف في الجب[١٠٢].

- يروى أن الدعاء يستجاب خلف المقام، وكان دعاء آدم اللهم: إنك تعلم سري وعلانيتي [١٠٣].

١٠- المشاعر جمع مشعر والمراد منها ها هنا مواضع النسك، ويسمى كل موضع من مواضع النسك مشعرًا؛ لأنه معلم لعبادة الله تعالى[١٠٤].

- أخيرًا أنهي مقالتي بذلك اللغز الذي فيه ذكرٌ لأمنا حواء قالوا: الأم التي لم تخلق هي أم الكتاب، والأم التي ما وُلدتْ هي حواء، والأم التي ما ولدت هي عائشة، وأقول: أم الأماكن هي مكة المكرمة فهي أم القرى.

١١- أثر سيدنا إبراهيم في تاريخ مكة اللغوي.

١٢- وهو أي البيت بحذاء البيت المعمور لو سقط ما سقط إلا عليه [105].

١٣- عن وهب بن منبه أن الله تعالى لما تاب على آدم عليه السلام أمر أن يسير إلى مكة، فطوى له الأرض وقبض له المفاوز حتى انتهى إلى مكة [١٠٦].

- قصة حواء وأبينا آدم.

- استطاع إبليس إغواءها قيل خرج إلى حواء وأخذ شيئًا من الشجرة، وقال: انظري ما أحسن هذا، فأغواها حتى أكلت، ثم أغوى آدم بواسطة حواء، قالت حواء لآدم: كُلْ فإني قد أكلت، فلم يضرني، فأكل فبدت لهما سؤاتهما، وفي ابن عطية: "قال ابن المسيب إنما أكل آدم بعد أن سقته حواء

---

١٠١ - البحر العميق ٣٤٤/١

١٠٢ - البحر العميق ٤٥٤/١

١٠٣ البخر العميق ١٢٤٣/٢

١٠٤ البحر العميق ١٦٤٠/٣

105 - تاريخ مكة ٣٧/١

١٠٦ - المرجع السابق ٣٧/١

الخمر، فكان في غير عقله[١٠٧]، وعلق المحقق على قول ابن المسيب بقوله: كيف يكون هذا وخمر الآخرة لا يغتال العقول؛ كما قال تعالى "لافيها غول ولا هم عنها ينزفون"، ونقل عن ابن العربي فساد هذا القول عقلًا ونقلًا، والحق أنه أكل ناسيًا كما قال تعالى: {ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزما}، وأضاف المحقق قائلًا: ومن العجب أن ابن عطية جرى هنا وراء القصص الذي لا يتوقف عليه فهمُ الآية الكريمة والعصمة من الله وحده[١٠٨]، ويبدو لي ما يأتي:

- أن الخمر الذي لا يغتال العقول هو خمر الجنة في الآخرة، فربما كان خمر الجنة الأول مما يغتال العقول.

– أن كونه ناسيًا لا ينفي شربه الخمر، فربما كان النسيان بسبب شربه الخمر، وهذا بين واضح.

- أن هناك من يقول: إن القصة كلها جرت في جنة ليست تلك الجنة التي ستكون في الآخرة، فربما كان في هذه الجنة خمر يغتال العقول[١٠٩]، أو كان عقاب حواء هو:

- وقيل بعدها لحواء كما أدميت الشجرة، فكذلك يصيبك الدم في كل شهر.
- وكذلك تحملين كرهًا وتضعين كرهًا تشرفين به على الموت مرارًا.
- قال ابن عطية وزاد الطبري وزاد النقاش: وتكونين سفيهة وقد كنت حليمة.

١٤- قيل: إنها عوقبت أيضًا بأن حرمها الله دخول الحرم، ففي رواية عن وهب بن منبه فيها: وحرم الله عز وجل على حواء دخول الحرم، والنظر إلى خيمة آدم عليه السلام من أجل خطيئتها التي أخطأت في الجنة، فلم تنظر إلى شيء من ذلك حتى قبضت، وإن آدم عليه السلام كان إذا أراد لقاءها ليلم بها للولد، خرج من الحرم كله حتى يلقاها[١١٠]، ويضعف هذه الرواية روايات كثيرة تؤكد أنها كانت مع آدم عليه السلام في رحلته كلها قيل إنهما تعارفا في عرفات، فسُميت عرفات، وازدلفا إلى المزدلفة، فسميت مزدلفة، وجلست على المروة، فسميت مروة، فكيف نقبل ما ذكره وهب بن منبه بأنها لم تدخل الحرم[111].

---

١٠٧ – المحرر الوجيز ٢٥٦/١

١٠٨ – المحرر الوجيز ٢٥٦/١ الهامش

١٠٩ – المحرر الوجيز ٢٤٩/١

١١٠ – أخبار مكة، ٣٨/١

111 – روح المعاني ٢٥/٢

١٥- لذلك لا وجه للقول بهذه الرواية أبدًا، فهي باطلة والله أعلم، فلا ترد على ما فسرنا به بعض علل تسميات الأماكن المقدسة بحضورها مع آدم عليه السلام.

- وبعد هذه الجولة في تفسير اسمهما يتضح الآتي:

١ – أن سيدنا آدم عليه السلام هو أولُ من بنى بيتًا في الأرض وهو الكعبة[١١٢]، والرواياتُ الدالة على ذلك كثيرة، نذكر منها ما يضيء لنا المشهدَ:

قالوا: إن الله أمرَ آدمَ بعد إنزالِه من الجنة إلى الأرض أن ابنِ لي بيتًا تتعبَّدُ فيه أنت وولدَك كما تتعبد ملائكتي حولَ عرشي وطفْ به واذكرْني حوله كنحو ما رأيت، فهبطتْ عليه الملائكةُ فحفرَ حتى بلغَ الأرض السابعة، فبنى البيت الحرام على أُسٍّ ثابتٍ أظهره له جبريلُ، وقذفت الملائكةُ فيه الصخرَ من خمسة أجبلٍ: من لبنانَ وطور زيتا، وطور سينا، والجوديّ حتى استوى وأشرفَ وظهرَ على وجه الأرض، فكان كما قال ابنُ عباس هو أولُ من أسسَ البيتَ وصلى فيه وطاف به، وحين حصل الطوفانُ درسَ موضعَ البيت حتى بعث الله تعالى إبراهيمَ وإسماعيلَ فرفعا قواعدَه ثم بنته قريش [١١٣].

– حين أهبطه اللهُ من الجنة كان رأسُه في السماء ورجلاه في الأرض، وهو مثلُ الفلَك من رعدته، فكانت الملائكة تخافه وتهابه، فقُبض وطأطأه الله إلى ستين ذراعًا، قال: يا رب مالي لا أسمعُ أصواتَ الملائكة قال: خطيئتك يا آدم.

فاشتد بكاؤه وحزنُه، حتى إن الملائكةَ كانت تَحزَنُ لحُزنِه وتبكي لبكائه، وقيل: لو عُدِلَ بكاءُ الخلْقِ ببكاءِ آدمَ حين أُخرجَ من الجنة ما عدَلَه.

– فعزَّاه الله بخيمةٍ من خيامِ الجنةِ ووضعَها له في مكة مكانَ البيت، وهذه الخيمة عبارةٌ عن ياقوتةٍ حمراءَ من يواقيت الجنة، فيها ثلاثةُ قناديلَ من ذهبٍ، من تِبْرِ الجنة، وفيها نور يلتهب من نور الجنة، وقيل: لها بابان، أحدُهما شرقي والآخرُ غربي، وحَرستِ الملائكةُ له هذه الخيمةَ من الجنِّ والشياطين[١١٤].

- قيل: أنزل اللهُ تعالى مع هذه الخيمة الحجرَ الأسودَ يعني الركنَ وهو يتلألأ من شدةِ بياضِه، فأخذه آدمُ وضمَّهُ إليه أنسًا به، وقيل: كان في الجنة كرسيًا لآدم يجلِسُ عليه[١١٥].

---

١١٢ – عدة الإنابة ٤٤

١١٣ – أخبار مكة ٣٦/١

١١٤ أخبار مكة ٣٨/١

١١٥ – أخبار مكة ٣٧/١

– أقام في مكةَ يعبدُ اللهَ عند ذلك البيتِ، ويطوفُ به كما تطوفُ الملائكةُ حول العرش ويصلي عنده كما تصلي الملائكةُ عند العرش حتى قبضه الله تعالى [١١٦].

وقيل: إن آدمَ أقام بمكة مائة عام[١١٧].

٦– اختُلِفَ في باني البيت قيل: الملائكة، وقيل: آدم، وقيل: إبراهيم، ويُجمع بين ذلك بأنَّ أول من بناه الملائكة ثم جدده، آدم ثم إبراهيم[١١٨].

١٦– ومن أخبار آدم الجميلةِ، قيل: إن آدم اختار من الطيور الديك والحمامة، ومن المواشي النعجة، ومن الأنعام الناقة[١١٩]، وكان ديك آدم أبيضَ أفرقَ [١٢٠]، أصفرَ الرِّجلين كالثور العظيم[١٢١].

١٧– قيل: إنه كان حرَّاثًا، وكان نوح نجارًا، وزكريا وإدريس كان خياطين، أما لقمان وداود فكانا زرَّادين، وكان إبراهيم زراعًا، ولوط وصالح كانا تاجرين، وموسى وشعيب ومحمد رعاة[١٢٢].

٨– أما أدعيةُ آدم المنسوبةُ إليه: فقد قال الكرماني: ويُستحبُّ أن يدعو بعد ركعتي الطواف عند الحجر الأسود بدعاء آدم صلوات الله عليه، قيل: إن آدم بعد طوافه بالبيت سبعًا صلى ركعتين تجاه الكعبة، ثم أتى الملتزمَ فقال: "اللهم إنك تعلَم سري وعلانيتي، فاقبلْ معذرتي، وتعلمُ ما في نفسي وما عندي، فاغفرْ لي ذنوبي، وتعلم حاجتي فأعطني سؤلي، اللهم إني أسألك إيمانًا يباشرُ قلبي، ويقينًا صادقًا، حتى أعلم أنه لن يصيبني إلا ما كتبتَ لي، والرضا بما قضيتَ عليَّ"، قال فأوحى الله تعالى إليه: يا آدم قد دعوتني بدعوات فاستجبتُ لك، ولن يدعوني بها أحدٌ من ولدِكَ إلا كشفتُ غمومَه وهمومَه، وكففتُ ضيعتَه[١٢٣]، ونزعتُ الفقرَ من قلبه وجعلتُ الغَناءَ بين عينيه، وتجرْتُ له من وراء تجارةِ كلِّ تاجرٍ، وأتتْه الدنيا وهي راغمة، وإن كان لا يريدها، قالوا: فمذ طاف آدمُ عليه السلام كانت سنةُ الطواف[١٢٤].

---

١١٦ أخبار مكة ٤٢/١

١١٧ – الطبقات الكبرى للشعراني ٦٨

١١٨ – فتح القدير، ٣٦٢/١

١١٩ – البحر العميق ٥١٦/١

١٢٠ – أي شعره مفروقًا

١٢١ – البحر العميق ٥١٥/١

١٢٢ – البحر العميق ٣٠٧/١

١٢٣ – أي كفيته ماله وحفظت له تجارته

١٢٤ – أخبار مكة ٤٤/١

- ومن الأدعية والأذكار التي حفَلَتْ بها كتبُ التفسير والأخبار، ما ذكره ابنُ عطية حين فسَّر لفظةَ "الكلمات" من قوله تعالى: "فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه"، ذكر عن مجاهد أن الكلمات هي "ما قاله آدم وهي: سبحانك اللهم لا إله إلا أنت ظلمت نفسي، فاغفر لي إنك أنت التواب الرحيم"، وقد سئل بعضُ سلف المسلمين عما ينبغي أن يقوله المذنبُ؟ فقال: يقول: ما قال أبواه: ربنا ظلمنا أنفسنا، وما قال موسى: ربِّ إني ظلمت نفسي فاغفرْ لي، وما قال يونس: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين[١٢٥].

- حج آدمُ عليه السلام فقضى المناسكَ، واستقبلته الملائكةُ بالمِأزَمَين[١٢٦]، قائلين له: بُرَّ حجُّك يا آدم قد حججنا هذا البيتَ قبلك بألفي عام، قال: فما كنتم تقولون حوله؟ قالوا كنا نقول: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، فكان في طوافه يدعو بهذا الدعاءِ، وفي رواية أخرى أن الملائكةَ لقيته في الطواف، وسألهم عن دعائهم ثم زاد عليها قائلًا: ولا حول ولا قوة إلا بالله، قال: فزادت الملائكةُ فيها ذلك، وقيل: إنهم أخبروا سيدنا إبراهيمَ بها فقال لهم: زيدوا "العلي العظيم"، ففعلتِ الملائكةُ ذلك، وكان طوافه سبعةَ أسابيعَ بالليل وخمسةَ أسابيعَ بالنهار[١٢٧]، وقالوا: حجَّ آدمُ على رجليه سبعين حِجةً ماشيًا[128].

٩- قيل: إن قبر آدم عليه السلام بقربِ منارةِ مسجدِ الخيف[١٢٩]، وقيل: إن قبره ومعه حواء في جبل أبي قبيس[١٣٠]، وقيل: إنه مات في الهند، وأوصى بأن يُدفنَ في بيت المقدس[١٣١].

١٠ - هذه بعضٌ من سيرته وصفاته، وهي أخبارٌ بمجملها إخبارية لم ترِدْ مُوثَّقةً، فهي كغيرها من المرويات الضعيفة التي تبيّن لنا بعضَ المشاهد والصور التاريخية التي قد يُستفادُ منها في تأريخ الجانب اللغوي لأية بقعةٍ جغرافيةٍ يرغب المرءُ في الوقوف على سيرتها اللغوية، ففيها ما يؤنس مع كونها ضعيفةً أو موضوعة.

---

١٢٥ - المحرر الوجيز، ٢٦١/١

١٢٦ -قيل: المضيق بين جبلين وسمي الموضع الذي بين مزدلفة وعرفة

١٢٧ - أخبار مكة ٤٤/١

128 تاريخ مكة ٤٥/١

١٢٩ - البحر العميق ٢٣٨/١

١٣٠ - منائح الكرم، ٢٠٩/١

١٣١ - البحر العميق ٢٨٤/١

- ولنأتِ الى اللغة، وقد أفاض في ذلك الشيخُ الدباغُ صاحبُ كتاب الإبريز، فأكد أن لغةَ أهلِ الجنة هي السريانية[١٣٢]، وعرج إلى ذكر ما قاله سفيان – أي ابن عيينة – والله أعلم – حين فسر كلمة البيان الواردة في قوله تعالى: (خلق الإنسان علمه البيان)، قال: إن المراد هو النطق بسبعمائة لغة أفضلها لغة القرآن، وأن آدم كان يعرفها كلَّها، ومَنْ دونه من الأولياء يعرفونها ولكن لا ينطقون إلا باللغة التي نشأ عليها الوليُّ، ولذا كانت السريانيةُ لغةَ آدمَ؛ لأنها كلامُ أهلِ الجنة، فكان يكلم زوجَه وأولادَه بها وبقيت السريانيةُ في أولاده على أصلها من غير تبديل ولا تغيير إلى أن ذهبَ سيدُنا إدريسُ على نبينا وعليه الصلاة والسلامُ، فدخلها التبديلُ والتغييرُ، وجعلَ الناسُ ينقلونها عن أصلها ويستنبطون منها لغاتِهم[١٣٣]، ونص أيضًا على أن لغةَ "أهل الديوان "– وهو كما يفهم من كلامهم مجلس روحي خاص بخواص الأولياء – ولعله مجلس الأقطاب – وتحضره أرواح الأنبياء – كذا قال – هي السريانية، وأنهم لا يتكلمون العربية إلا إذا حضر سيدُنا محمدٌ صلى الله عليه وسلم أدبًا معه وتوقيرًا؛ لأنها لغته في حياته في دار الدنيا، وذكر في موضع آخر أنه لا يعرف السريانية إلا الغوثُ، والأقطاب السبعة الذين تحته، وقد علمه إياها في شهر واحد الشيخ أحمد بن عبد الله الذي كان غوثًا، وقد علمه إياها لعلمه بأنه سيكون قطبًا كما ذكر تلميذه؛ لأنه تقطب بعد ذلك بقليل، ومن عجيب كلامه تقريرُه أن لغةَ الأرواح هي السريانية أيضًا، لذا فالصبي ما دام في حال الرضاع، فإن روحه متعلقة بالملأ الأعلى، الأمر الذي يجعله ينطق ببعض الكلمات السريانية لقرب عهده بلغة الملأ الأعلى كلفظة "أغ" و"بوبو" و"عع" و"مومو"، وفسر معنى كل لفظة بالسريانية، وقرر أيضًا أن لغة القبر هي السريانية، وفسر ألفاظ السؤال والجواب، ثم أكد أن بعض ألفاظ القرآن الكريم سريانية كلفظة "أسفار والربانيون وهيت، ولفظةِ شهر وعدن ورهوا"، ومن عجائب حديثه أنه ذهب إلى أن الحروف المقطعة التي في أوائل السور مكتوبة في اللوح المحفوظ باللغة السريانية، وراح يشرح بعضَها شرحًا، يستفاد منه أن لكل حرف في السريانية معنىً مفيدًا إذا جُمِعَ إلى حرف آخر حصلت منهما فائدةُ الكلام، وقال: إن السريانية ساريةٌ في كل اللغات سَرَيانَ الماءِ في العود؛ لأن حروفَ الهجاء في كل كلمةٍ من كل لغةٍ قد فُسِّرتْ في السريانية ووُضِعتْ فيها لمعانيها الخاصة مثال ذلك كلمة محمد تدل في لغة العرب على الذات المسماةِ به، وفي السريانية تدل الميمُ على معنى، والحاء على معنى، والميم المشددة على معنى، والدال على معنى،

---

١٣٢ – الإبريز، ٢٢٠

١٣٣١٣٣ – الإبريز ٢٢٠

والبارقليط وضع في العبرية علمًا على سيدنا محمد، وفي السريانية الهمزة تدل على معنى، واللام تدل على معنى، وهكذا إلى آخر حروفه، فالسريانية هي أصل اللغات بأسرها واللغات طارئة عليها[١٣٤]، ثم فسر ذلك بقوله: وسبب طروئها هو الجهل الذي عم بني آدم، وذلك لأن مبنى وضع السريانية وأصل التخاطب بها، المعرفةُ الصافيةُ التي لا جهل معها حتى تكون المعاني عند المتكلمين بها معروفة قبل التكلم، فتكفي إشارة فقط لإخطار المعنى في الذهن، فاتفقوا على أن أشاروا إلى المعاني بالحروف الهجائية تقريبًا، وقصدًا إلى الاختصار؛ لأن غرضهم الخوض في المعاني لا فيما يدل عليها حتى إنه لو أمكنهم إحضارها، بلا تلك الحروف ما وضعوها أصلا، ولهذا لا يقدر على التكلم بها إلا أهلُ الكشفِ الكبير، ومن في معناهم من الأرواح التي خُلِقتْ عرَّافةً دراكة، والملائكة الذين جُبلوا على المعرفة، فإذا رأيتهم يتكلمون بها رأيتهم يشيرون بحرف أو بحرفين أو بكلمة أو كلمتين إلى ما يشير إلى غيرهم بكراسة أو كراستين [١٣٥]، وتابع الشيخ شرحه، فقال: "إذا عرفت هذا علمت أنه لما عمَّ بني آدم الجهلُ كان ذلك سببًا في نقل الحروف عن معانيها التي وضعت لها أولًا وجعلها مهملة، فاحتيج في أداء المعاني إلى ضمِّ بعضِها إلى بعض حتى يحصلَ منها مجموعٌ يُسمى كلمةً، يدلُّ على معنى من المعاني الدائرة عند أهل ذلك الوضع، فضاع بسبب جهلِ معاني الحروف ومعرفةِ أسرارها علمٌ عظيم، ومع ذلك فإن أخذتَ تلك الكلمةَ التي في تلك اللغةِ وأردتَ أن تفسرَ حروفَها بما كانت عليه قبل الوضع والنقل، وجدتَ في الغالب جزءًا منها يدل على المعنى الذي نُقِلتْ إليه لاتفاقه مع المنقول عنه، ووجدتَ باقي حروف الكلمة يدل على معان أُخر يعرفها السريانيون ويجهلُها غيرُهم، فالحائط مثلًا وضع في لغة العرب للسور المحيط بدار أو نحوها، والحاء التي في أوله تدل على ذلك في لغة السريانية، والماء مثلًا وُضع في لغة العرب للعنصر المعروف، والهمزة التي في آخره تدل على ذلك، والسماء وضعت للجرم المعلوم، والسين التي في أوله تشير إلى ذلك، وهكذا من تأمل غالبَ الأسماء وجدها على هذا النمط، ووجد غالب حروف الكلمة ضائعة بلا فائدة[١٣٦]، وقد أشار النبهاني في ترجمته للشيخ الدسوقي إلى ما ذكره الشيخ الدباغ فقال: كان يتكلم العجميَّ والسرياني والعبراني والزنجي وسائرَ لغات الطيور

---

١٣٤ – الإبريز، ٢١٩ بتصرف

١٣٥ – الإبريز، ٢١٩.

١٣٦ – الإبريز، ٢١٩.

والوحش[١٣٧]، ومصداق ذلك فيما أرى أن الشيخ الدباغ شرح ألفاظًا سريانية استخدمها الشيخ الدسوقي في بعض أدعيته[١٣٨].

والحق أن هذه الأفكارَ التي طرحها الشيخ الدباغ تمثل نظريةً متكاملةً في ذهنه، وهي تحتاج إلى دراسة قد تؤدي إلى تغيير كثير من المفاهيم، فهل يطرد سَريانُ السريانية في كل اللغات العالمية؟ وهل السبعُمائةِ لغةٍ تلك التي ذكرها في تفسيره لكلمة "البيان " داخلةٌ تحت هذا، أم مرادُه اللغاتُ السامية فقط، وهل يطرد قوله: إن كل كلمة عربية، قد يوجد فيها حرف يتطابق مع حرف سرياني معناه هو مجموع المعنى اللغوي للفظة العربية؟ والحق أن حديثه لا يخلو من فوائد للباحثين في أصل لغات البشر، وللمشتغلين في المقارنات اللغوية، وللمختلفين في تفسير الحروف المقطعة في القرآن الكريم، وهي بالجملة آراء كغيرها من آراء الصوفية التي نعرضها لتبيين معالم درسهم اللغوي ومعرفة منهجهم في توظيفهم علوم العربية، لخدمة آرائهم وأحوالهم الذوقية، وهي كما قلت سابقًا بحاجة إلى دراسة متأنية تصل إلى الموافقة أو إلى المخالفة.

- فمما يرد على ما ذكره الشيخ الدباغ هو قول ابن عباس: تكلم آدم بسبعمائة ألف لغة أفضلها العربية[١٣٩]، وفي رواية عنه أيضًا أن آدم عليه السلام كانت لغتُه في الجنة العربية، فلما عصى سلبه اللهُ العربيةَ، فتكلم السريانيةَ، فلما تاب ردَّ عليه العربية[١٤٠]، فهذا الأثر يثير قضيةَ لغة آدم في الجنة أهي العربية أم السريانية؟ وما أكثر الخلاف فيها، والحديثَ عنها، والذي يفيدنا من هذا الطرح كله أنه عليه السلام لكونه أولَ الخليقة، وارتبط الخلقُ والوجودُ به، كان من الطبيعي أن يظهرَ في عدد من القضايا اللغوية الكبيرةِ على النحو الذي نسجله في هذه المقالةِ.

---

١٣٧ - جامع كرامات الأولياء، ٣٩٨/١.

١٣٨ - الإبريز ٢١٧

١٣٩ - البحر العميق ٢٤٣٢/٥والظاهر أن المراد من هذا العدد هو أن الله سبحانه وتعالى زوده بشريحة في دماغه تتسع لمثل هذه الأعداد، وإلا ما فائدة الكلام بهذه اللغات ومن المحال أن يتكلم بها لأنها غير لازمة له لقضاء حوائجه إذ لم يكن حينئذ معه إلا حواء =فما فائد تعليمه هذه اللغات من غير ناطقين بها، والعجيب أن بعض المواقع تقول: إن لغات العالم أكثر من سبعة آلاف لغة في العالم، وقيل: خمسة آلاف، انظر موقع زيادة وموقع اليوم السابع قاموس لغات العالم

١٤٠ - المزهر ٣٠/١